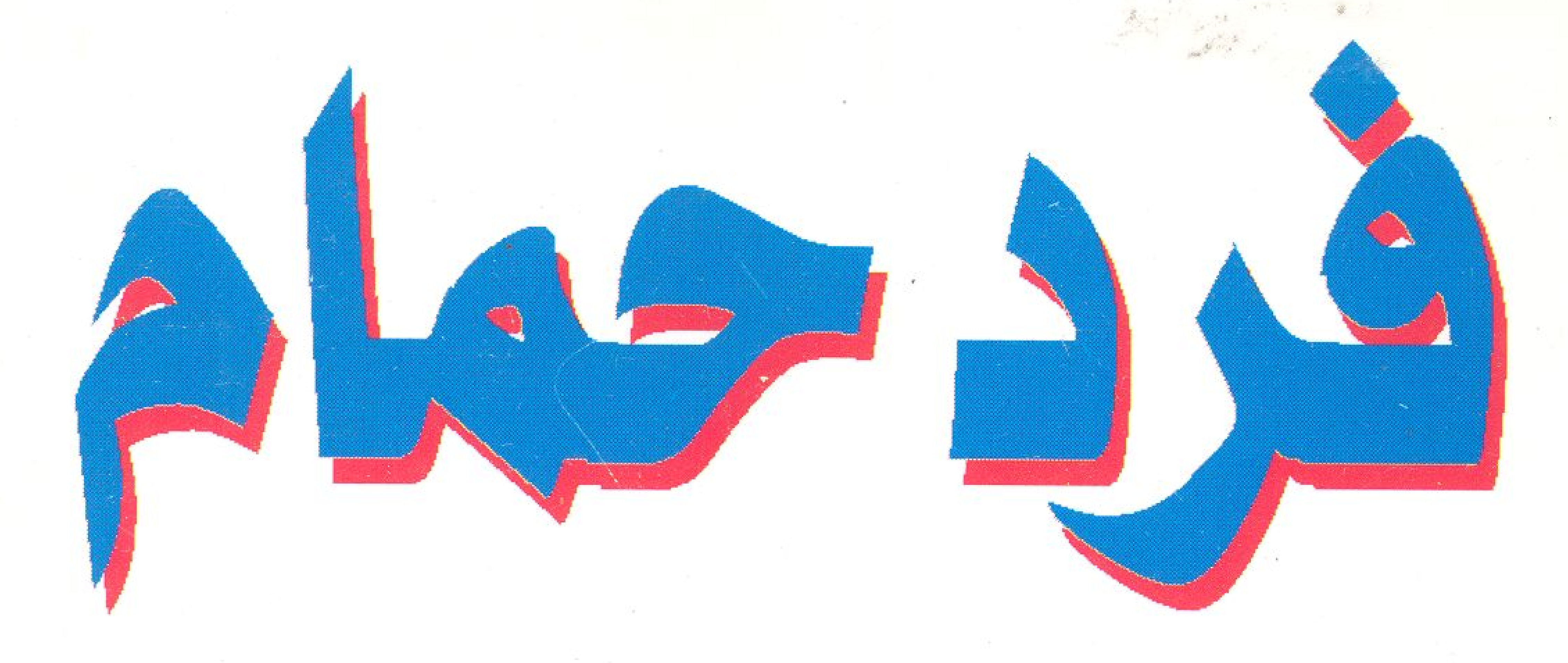




يوسف فاخوري



فرد حمام

يوسف فاخورى

لوحة الغلاف للفنان : مصطفى خليل

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٢٤٩٦/ ٩٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-054-3



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ :صفاء الشريف

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

يوسف فاخوري

فرد حمام



الدبابير تنهش رأسي

منذ أن أطلق دبابيره على نقطة من رأسى ، لم أستطع أن أتعايش مع أيامى ، فانتفخ الرأس منى ، وصرت كائناً يبحث عن طريقة لاحتمال أيامه ، وصارت أيامى تبحث الخلاص منى ، وصار قدرى ألا أتصالح مع مصيرى ، من ذلك الكهف انطلقت كل القوى الكامنة منى . لا أعرف كيف حدث ما حدث ، لكنه الآن يشكل مصيرى أو على الأقل ما آل إليه ذلك الكائن الذى لم أستطع إدراك الخير من الشر فيه . ذات يوم وكنت آنذاك طفلاً قال لى : سأطلق دبابيرى إلى خيالك ، وستجد نفسك مرعوباً من مسها ، فينطلق خيالك ويجمح ولن تستطيع السيطرة عليه .

لم أحس بلسع دبابيره ولم أرها ، وإن كانت تتراءى لى فى خيالات أحلامى ، لم أستطع تذكر أشكالها أو ألوانها حين أصحو ، كل ما كنت أتذكره أشكالاً ضبابية تنبئ عن تشكيل معين ، ولا تشفى غليل العين اليقظة للرؤية ، وإن كانت تعطى للرؤية زئبقيتها ، أو أستيقظ أحياناً على شئ يقلقنى ولا أستطيع النوم لأيام إلى أن اهتدى لفكرة كانت تؤرقنى ، قد أكون نسيتها ، لكنها تنفجر فجأة كعين ماء ضاقت بوطء الأرض فراحت تغنى بدفق إلى رؤى السماء .

ذلك الكائن لم يتبد كعراف ولم يظهر كراهب زاهد ، ولم يتجل كصوفى تماهت لديه المسافات والأزمنة ، فسالت وتجمدت فيما بين الرؤى والرؤية ، ولم يكن مجذوباً أو ممسوخاً ، كان إنساناً عادياً بسيطاً ، لكنى حاولت أن أكتشف سره فلم أستطع ، وكان رأسى ينتفخ وكانت دبابيره تؤرق علىّ كيانى .

منذ طالعه وعيى ، أذكر أننى كنت أطل من شباك المنزل ، وكان الوقت غروباً ، وكان يجلس فى ركن من الحديقة صامتاً ، ذلك الصمت الذى يثير فى الأطفال رعب لمسه ، بجوار كهفه الذى لم يكن يبدو ككهف فاغراً فمه وبحدة عين طفل استطعت أن أرى كهف فمه ، لم يبق فيه سوى ناب وضرس وسنة واحدة ، تفرقوا فى فمه حتى بدا ككهف مهجور إلا من بعض العنكبوت ، لم يكن سوى الجناينى الذى لم يدركه أحد ، مجرد كائن ملقى لتجميل حديقة المنزل الذى كان قبلا أضيف لها بعض الأدوار بحكم أزمة السكن ، ورقى الموقع الذى كان يوماً مهجوراً على الأطراف فأصبح فى القلب . كانت تؤلف حالة نشاز فيما بين معمارها الأنيق فيما مضى ، وتشوهات الارتفاعات التى لم تجعل منها يلاً كما كانت ولم تصبح عمارة فيما أصبحت ، الحسنة الوحيدة انهم تركوا الحديقة كما هى .

لم يدركه أحد ، ولكنه كان يدرك الجميع ، علاقة من الإيمان ربطته بجدى العجوز الذى كنت أحبه كثيراً ، والذى لم ينل الزمن منه ولم يمت رغم أن الكثيرين من صغار العائلة ماتوا ، وأصبحت أخاف أن يموت وأفقد روعة زمن عشت به ، كانا يومئان لبعضهما ، ويضحكان ، وأحياناً يقهقهان ، فيتبدى كهف فمه كشئ مما قبل التاريخ ، وترتسم على وجه جدى رؤى الزمن الذى لا ينقضى فى ملامحه . بينما كانت علاقته بجدتى علاقة الأمر والنهى ، جدتى التى شاخت رغم انها أصغر من جدى كثيراً ، ولفرط دهشتى كان يتقبل أوامرها دونما اعتراض وإن كان لا يفعل شيئاً منها .

كان لغزاً لم أستطع أن أفهمه حتى الآن ، بدا لى كشجرة الجميز حين تشيخ وتتفسخ وتفتح جذعها للزمن . لكن جذعها يزداد رسوخاً ، له عينان

غارتا في المحجرين حتى بدتا كفتيل مصباح عتيق يعتصر الرمق الأخير من ضوء شحيح ، حين يرمقني بزاوية عينيه كان يقلب دائرة العينين في المحجرين ثم يطرق للأرض ولا ينطق ، لحظتها كنت أتمنى لو كنت أملك سر الإيمان الذي كان بينه وجدي ولا أستطيع الإمساك بتلك النظرة فانطوى.

علمني كيف أرى البشر من قفاهم كأنما تشف عن ملامحهم فأرى ما تحت جلودهم وإن أنكروا ، وما يتغامزون ، وما يتواطأون ، وما يتهامسون ، لكنهم حين يرونني فلا يعرفون إلا ملامح وجهي ، وظواهر الأشياء .

كلما تأملته أحسست بشئ يسرى في كيانه كأنما ضوء خفي ، كأنما صوت لا يشي ، كإنما روعة لا ترى ، يا لدهشتي ذلك ليس إلا لسع دبابيره.

كان لي صديق ثان ، وكان بينهما وبيني صراع لن أنبئكم عنه فلستم أهلاً لمعرفته ، وإن كان طرف خفي بينهما أنا همزة وصله ، كان صديقي منذ علقت المدرسة ذراعيّ على سبورة بليدة ، ومنذ غمغم القمري على شجرة البوانسيانا وطار بفرد القمري المنتظر إلى الأفق ، يومها وجدته ينظر لي من خلف الشجرة ويستدير . وكانت دائرة عينيه تنطقان ببهجة وبريق شقي ، فعشقت عيون الفئران وكرهت عيون المدرسات الميتة .

حين عدت إلى المنزل تبعني دون أن أدرى ، تسلق شجرة المانجو العتيقة في الحديقة ، وراح يسيك بصوته الحاد كأنه يدعوني لتسلق الشجرة معه ،

لكنى خفت . لا أعرف من نفسى أم من نفسه أم من عجوز الشجر ، وحين نادتنى المربية تبعتنى إلى داخل المنزل ، وصرنا صديقين

لست أعرف كيف حدث ما جرى ، لكنى لست أؤمن بالقدر الذى يسقط من السماء على ضعفاء ، فيقضى عليهم بلذة الغامض غير المدرك فيصير إلى غامض أشد غموضاً من روح اللامتهى ، لست ابن ذلك اللحن الفرعونى التراتيلى الذى يسحب روح الكائنات إلى الكلمات الناعمة فتنسحب فيما بين الزمن المجهول والسحر المنقضى إلى غامض ليس يدرك ، ولست ابن ذلك الترتيل الرتيب المنغم يستدعى سماوات لن تصل إلى أرض وإن أرخت للصحراء ضميرها فى ترددات الأصوات صدى لم يبلغ الأفق إلا ليتردد فى الترائب ، لا يمسك أفقاً ، وإنما يخفق بالقلب ولا يستجيب ، كنت ابن رأسى ، ورأسى كان مطلوباً من الجميع .

كيف أبدأ قصتى معكم ، احترت من نفسى ومن خوفى ، ألا تتقبلوا حكايتى . بدأت طفلاً ككل البشر ، رأس وذراعان وجسد ، وانتهيت إلى رأس فقط ، رأس على قاعدة رخامية ، لم تكن تمثالاً ، كانت رأسا حية تنبض وجوداً ، كنت مندهشاً من نفسى رغم أننى انتهيت من الوجود والجسد إلى ضوء إلا أننى كنت ومازلت حياً برأس فقط دون جسد وسألت نفسى كيف ؟ فلم أجد إجابة .

علاقة غريبة راحت تشدنى نحو الفأر صديقى ، الذى راح يقتص من جسدى كل يوم قطعة ، تاركاً مكانها نفس شكلها شعاعاً من الضوء ، وكان الجناينى يطلق دبابيره على رأسى ، فينطلق الفأر صديقى إلى مهمته . فى أول مرة راح يقضم فيها قطعة من جسدى .. نظرت فى عينيه ثانية .. بدت

عيونه كقمرين يستديران فى فلك يخصه ، ويمنحنى البريق فتستقر نفسى ، ولا تقر عينى بل تسبح فى أفق ليس ينتهى . وكلما أحس أن العالم سيقتص بعضاً من كيانى ومن القى يقضم جزءاً منى ، فى البداية لم أفهم وكنت أغضب وأتألم ، ثم لا ألبث أن أستسلم ، فى النهايات استسلمت وكنت أنتظر القضم كى يخلصنى من ثقل جسدى ، فإن تأخر القضم أشعر بألم ممض فى ذلك الجزء المنتظر القضم ، وحين يبدأ القضم يسرى شعاع النور فى الجزء المنقضى لا يفنى ، ويسرى فى كيانى لحن من ضى يهمس همس غمغمات القمرى ، ويندلح ويلتهب ولا يغنى ، لم يكن الآخرون يبدون دهشة مع أننى أدرك أن شيئاً مادياً هو جسدى يختفى ويتآكل .. أحس به يفنى وأشعر بالوجود والفناء فى نفس اللحظة محسوساً ومرئياً وقادراً على التجلى . لم أستطع فهم إن كان فى أسنان صديقى الفأر ضوء يهب الجزء المنقضى لحماً ودماً من ضوء فيراه البشر يكمل ما انقضى أم أن شيئاً يولد من العدم ، من الخلايا التى تآكلت وأصبحت ذكرى ثم لا تلبث تنبثق حية لا تبالى بالعدم ، أم أن العيون سملت الرؤى واندلاح الضوء فى الماضى الذى أصبح الحاضر ، أم ان الرؤى اختلطت على روعى فلم أعد أدرك .

قلت لصديقى الجنايني : لماذا تسلط دبابيرك على رأسى وتتآمر مع صديقى الفأر أن ينهش جسدى ، ضحك الجناينى حتى انكشف كهف فمه فى قهقهة طويلة ، غضبت وسددت له لكمة قوية فى كهف فمه لكن ذراعى كان شعاعاً من ضوء اخترق الكهف ولم يحطم شيئاً . صمت وراح لحن حالم يصدر من فمه لم أستطع إلا أن أملك صمتى تجاهه .

قال لى : عقلـك أكبر من واقعك ، أنت تبدع أفكارا لا يجرؤ الآخرون على روعتهـا ، وهناك من لا يرغبها ، أنا أسلط دبابيرى كى تستـفز عقلك ، فتفرز أفكارك التى يخشاها الآخرون ، ويقضم الفأر أجزاء منك تتحول إلى نور ، ربما يدركها الآخرون فيما بعد ، تتعذب نعم ، لكنه قدرك ، وربما ذات يوم يحـولـهـا الآخـرون إلى لحـم ودم ثانـيـة من له رأس مـثلـك عليـه أن يحتمل قـدره .

انتفخ الرأس منى إلى الحد الـذى لم يعد يحتمل . منذ زمن بعيـد أشعر بكرة الرأس تتضـخم ، وكلما لمسـتها انتـفضت رعبـا الملامح - أعتقـد انها ملامـحى - تتسع أو تطول ، أتحسس وجـهى فألمس ورما يطـالعنى كأنه فى مرآة أمـامى هو كتلة الرأس كلها ، أمس فـروة الرأس بأناملى فترق كـبالون سميك ، يرق ، ويرق إلى أن يصيـر كفقاعة أو سحابـة ماء فينتابنى الدوار ، أنظر فى المرآة التى أعطاها لى وجهى ، فيطالعنى وجه مـشوش عادى أعتقد انه وجهى دونما دهشة .

لم أكـمل تعليمى الجـامعى رغم الذكـاء الظاهر للجـميع ، ربما بسـبب الترف الذى لم أعرف كيف استخدمـه ، ترفاً كان ضرورياً لأسرة لم تعرف يوماً معنى العـوز ، رغم كل ما مر بها من تقلبـات الزمن بما فيها التأمـيمات لأغلب مصادرها الحيـوية فى فترة من الزمن ، ثم استعادة لبـعض أملاكها . مازلت أذكر يومـاً - وكنت طفلاً - أن جدى وقد صودرت ممـتلكاته يومها لبس بـذلتــه ووضـع ربطة العنـق وتعطر ، نـزل إلى الشــارع وراح يمشى بخطوات منتظمة من المعادى حتى ميدان العـتبة ، جلس يشرب الليمون فى كازينو صـفية حلمى ، وبدا له وجـهه كمـا لو كان ينظر فى مرآة أمـامه راح

يتأمل شاربه ويعد عليه أيامه شعرة بشعرة . غاب فى أفق لن يبلغه مرة أخرى ، انتفض فجأة ، ثم عاد بخطى ثابتة والعرق ينز من إبطيه وشاربه منفوش . خلع ملابسه . أخذ حمامه الدافئ ، تعطر ونام .

فى المساء جمع أفراد العائلة على حفل عشاء ، وزع الكؤوس الحمراء- من النبيذ الذى كان يعشقه ويقطره بنفسه ويعتقه - على الجميع ، وضع اسطوانة فالس لستراوس فى الجرامفون . احتضن أصغر الحفيدات وراح يرقص بها . حين انتهى وقف فى منتصف قاعة الاستقبال وراح يتجول فى أركانها يتأمل القطع التى اختارها بعناية من أثاث وتحف ويتحسس الجدران ، ثم التفت لهم وقال لا شئ حدث ، كل ما فى الأمر اننا نستقبل حياة جديدة علينا أن نعيشها ، ثم قبل يد الجدة ، ووضع اسطوانة أخرى لفتحية أحمد وراح يدندن .

تنتابنى الشكوك فى نفسى كثيراً . ما هذا الذى يحدث لى . لا استطع أن أجزم إن كان ما يحدث حقيقة أم وهماً . أسأل نفسى كثيراً . لا أقتنع بإجابة يطرحها سؤال مشروع فى دنياى غير المشروعة . لم أجد إجابة عند الآخرين . أتوقف كثيراً أمام نفسى ورغبة شبقة تجتاحنى لكنى لا أجد لها ترجمة . أنا أريد أن أقابل عبقرية الوجود . لست أهتم كثيراً إن كنت متفوقاً أو عبقرياً ، أنا أعيش حقيقتى . لا أعتقد أن هناك عبقرياً أحس بعبقريته ، المؤكد أن مدعى العبقرية هم وحدهم من يتوهمون انهم عباقرة . العبقرى لديه ما يؤلم لؤلؤة وجوده . لا أحد يسأل المحار عن سر الدمع . لم يسألنى أحد ، لم أعد أسأل أحداً . المرآه لا تكذب . لكن إحساسى أيضاً لا يكذب. شئ ما ناقص . مبهم ، غامض ، لكنهم لا يدركون .

تكفل اتساع المدن المفاجئ بالحفاظ على وضع الأسرة المادى والمعنوى .
كان جدى مدمن شطرنج فشكلت الرقعة اسلوب حياته . علمه الشطرنج كيف يستغل المربعات الفارغة فيبتلعها قبل أن تبتلعه . وتعلم متى يهاجم ومتى ينكمش ، وكيف يخرج فائزاً فى النهاية . كان جدى من الذكاء بحيث أدرك ثغرات الزمن وكيف يسدها ويبنى عليها . ولأنه مثقف عتيد - وعلى غير عادة المثقفين - فقد استفاد من الإغريق فى اعتقادهم ان الكون يتكون من عناصر أربع الماء والنار والتراب والهواء . فكان يعتقد أن الحياة تتكون من أربع . المكان الذى لابد أن يكون لائقاً بالبشر وأن يكون لهم . والزمن الذى لابد أن يكون معهم لا عليهم . والقدر الذى يصنع ثلاثة أرباعه بنفسه ، ويترك للكون الربع الباقى يعربد كما يشاء . والخصم الذى إذا عض على اصبعه فلا يترك لألمه أن يطلق الآه إلى أن يصرع خصمه ، وتلك تعلمها من عنترة بن شداد .

كنت أعتقد أن لى وهجاً . لا لم يكن اعتقاداً كان حساً رائعاً . إذ اننى حين كنت أحاول تحليله بعقلى كنت أشعر بالسخف منه . لكن حين أطلق حسى أشعر بألق يسابق المذنبات التى تظهر كل حين من الدهر وتختفى . كنت استطيع أن أشعر بالضوء الخارج من النبات والصخر ورفيف النسمات فى مسها لبخر الموجودات المتصاعد إلى أفق مجهول لكنهم لم يكونوا يدركون . كانوا يريدوننى نمطاً جامداً وقادراً على الانحناء والابتسام ، لكنهم لم يدركوا قلب الشمس ، ولم أكن أهتم بمجرد مس سنون اللهيب .

أصولى المتنوعة الأعراق ، كانت تجعلنى أتوه فى حنايا عائلتى التى

اخـتلطت بأصـول تركـيـة ويونانيـة وأرمنيـة والجليـزية ، غـيـر سلسلة من المصاهرات والنسب ، وزواج البـعض منهم أثناء البعـثات الدراسية خـاصة فى فـرنســا ، وإن بقـيت الأسرة بفـروعـهـا وامـتـداد أطرافـهـا لـم تغـادر . تعلمت فى مدارس أجـنبية وبدت علىّ مظاهر التلـميذ الفـائق الذكاء . لم أسـتذكـر دروسى فى المنزل كـما يفـعل التـلاميـذ . لكنى كنت قـادراً على استـرجاع كل مـا سـمـعت فى الفـصل من دروس مـتنوعـة فى أى وقت وبتفصيل كامل - رغـم انشغالى دائماً باللعب مع زميلى الجالس بجوارى - هذا فضـلاً عن تدبيـر المؤامرات المدرسيـة . كنت قـادراً على الإجابـة عن أى سـؤال أو جـملة توقـف عندها المـدرس حين يضـبطنى مـتلبسـاً بفـعل مدرسى فاضـح .

من المدرسة أجدت الفرنسيـة والانجليزية . ومن المربية الإيطالية تلاعبت باللغـة الإيطالية والاسـبانيـة حتى أصـبـحت أكثـر سيـولة من لعـابى حين الدهشة . ولما كانت اللغات الأربع بها درجة عـالية من السلاسة والنعومة ، قررت أن أتحـدى نفسى بتـعلم لغـة خشنة فتـعلمت الألمانيـة دونما احتـياج حقيقى لهـا .

كـان يسلط علىّ دبابـيره فـى البـداية لم أكن أشـعـر بوخـزها . لكنهـا تدريجياً أصبحت كمس كهربائى خفيف ، صار يزداد حدة ، وصرت أرتعد منه ، وكـان صديقـى الآخر يسلط علـىّ أسنانه ينهش بلا رحـمة والضـوء ينداح رائع الوقع . لكنهم لم يكونوا يفهمون .

دوماً كنت أشعر أن لى راساً أكبـر من حدود المناهج الدراسية التى كان علىّ أن أتجرعها حتى لو كتمت أنفاسى كى لا أشـم الرائحة الكريهـة . لم

تضحكنى نكاتهم المحفوظة والمكررة ، وأضيق بالنميمة العائلية والمجاملات المعتادة . أغيـر الأصدقاء من فترة لأخرى . لم يكن هذا يـحدث عن عمد . لكن لحظة تأتى أحس أننى غير قادر على احتمال عاديتهم وسذاجة تعبيرهم عن أنفسـهم وعـالمهم الضـيق ، فـأختنق وأشـعـر برأسى يتضـخم وينتـفخ فـأنسـحـب بعـيـداً . أحكى لنفـسى الحكايات وألعب وحــيـداً . وكـانوا يستغربون.

تتمـاوج ذاكرتى بأحـداث الطفولة التى لا تنسى . يوم أيقظونـى مبكراً. مازلت أحس بحـجم كتلة جسدى الرجـراج لطفل تغذى جيـداً ، وأجبروه على ابتـلاع كل أنواع الأطعمـة المغذية ، وكـانوا يسعـدون بانتـفاخ ذراعـيه وقدميـه ، ويتألقون فرحاً بالحز الفـاصل فيما بين المفاصل ، والمربيـة تقتادنى إلى الحمّام . وأنا أتخبط بجسدها البض الطرى . والريح الخفيف يمس دفء وجهى الحـار ويتسلل إلى الجسـد المنوم . وفى المدرسة كـان أغلب الأطفال يبكون ، قاومت بكل قـواى ، وفى الفصل لم تستطع المُدرسة الاحـتفاظ بى من كثرة ضجيجى . لم أبك مثل الآخرين ، لكننى قررت أن أحتج بالغناء ، ارتفع صوتى بالغناء رغماً عنى ، لم أتعمد ذلك ، ولكنى أحسست بالوحدة وسط هذا الجمع ، نهرتنى المدرسة فلم يجد ، ضربتنى فلم أستطع التوقف ، كانت حنجرتى تتدفق بالغنـاء ، لم أستطع أن أوقف سيل الغناء والأصوات المنبـعثـة من داخلى ، أخرجـتنى أمـام السبـورة رافعـاً ذراعىّ لأعلى ، كنت سعـيداً أننى تخفـفت من حصار الدرج الضـيق ، لكنى لم أستطع احتـمال هواء الفصل الراكـد ورائحة خشب الأدراج القديمة المدهون حـديثاً ، كانت أنفاس زملائى المثقلة بالنوم تضغط على خيـالى الذى أحسست به كالبخار

يتصاعد فتتدفق الأصوات منى ، لم تستطع المدرسة أن تحتمل ، فضربتنى على مؤخرتى . كانت حبيبات الطباشير الهائمة من حولى تسبح فى الضوء الساقط من النافذة الضيقة وتكسو الدائرة المحيطة بى ، وكان البخار المنبعث من خيالى يتصاعد وكنت أحلق عالياً ، وكان رأسى يتضخم وينتفخ ويكاد ينفجر ولا ينطق ، بينما الأصوات تتدفق ، فحطت العصافير خارج الفصل تناغينى .

راحت عيناى تسبحان فى الضوء ، وتجفّف الجسد فسبح بين حبيبات الطباشير الهائمة فى الفراغ ، صرت أسبح وأحلم باللانهائى ، سقطت ذراعاى فجأة إلى أسفل . لم أشعر إلا والمدرسة تحاول أن تشدهما إلى أعلى وأنا أقاوم ، لكن لطمة قوية جعلت الحمرة تقفز إلى خدى وتتركز فى عينىّ . نظرت إليها نظرة مازالت تخرج منى حين أشعر بالإهانة . أحسها مدى احتقارى ، مدى ألمى ، لكن فيما بعد حين أدركت كم هى ميتة عيون المدرسات . اكتشفت وهمى .

حين خرجت من الفصل مطروداً ، سرت فى كيانى رعشة هواء متجدد له رائحة طازجة . سرت البرودة فى خدى تدريجياً ، وانسحب الاحتقان من عينى . ملأت صدرى باستنشاقه مازالت تتداعى إلىّ كلما خرجت إلى المناطق الخلوية أو تسلقت جبلاً . هى نفسها سحبة النفس ، ونفس الامتلاء، نفس الزفير رغم اتساع المدى .

فى ركن من فناء المدرسة كانت نخلة عجوز ارتفعت فى السماء منتصبة ، كما لو كانت جذورها قررت أن تثقب الأفق بالسعف المشرع بقدر ما تمتد الجذور من الأعماق السحيقة لدائرة وجودها . على مقربة منها

شجرة سرسوع وشجرة بونسيانا تعـانقتا فى وفاق تآمرى ضد ضوء الشمس فى بحـر أفقـه . التقطت بعـضاً من ثمـار شجـرة السرسـوع الطرية ورحت أطقطقـها . اسـتهـوتنى الطقطقات ورحت أثـنيهـا لتتكسـر فيـعطينى حس إيقاعات تكسر صمت الظل ، يتـواطأ مع همسى الخفى . نظرت إلى شاهق السعف ، وتمنيت لو أنه يستطيع أن يلمس قـبة السماء ويتنفس . نظرت إلى جسدى ، أحـسست كـما لو أنـنى نواة تمر . كانت النخلـة محـملة بالتمـر الأحمـر الدموى كضروع مـثقلة تنتظر الحليب ، والسـعف يشرع سنونه فى ضوء الشمس متحدياً لحمة الضوء .

ثلاثة أيام لم أدخل الفصل . إلى كهف الظل فيما بين شجرتى السرسوع والبونسيانا أهرب . أبلل الرمال وأصنع منها تماثيلاً . أغنى وأدمدم بأصوات لا أعرف حتى الآن كيف تـخرج منى . فتحط إلىّ العصافـير السوداء وكان بعضها ملوناً . وعلى شجـرة البونسيانا كان القمرى يغمغم بأغـانيه . فيهبط إلى الأرض فرد قمـرى آخر تغمغم له . وقـتها لم أكن أدرك أيهـما الذكر ، أيهما الأنثى . لكن أصواتاً كانت تخرج منهـما تودعانى حين يرفرفـان معاً إلى البـعيد ، ويـنداح لحن غامض . حين اكـتشـفوا مخـبئى وأعـادونى إلى الفصل كانت عين المدرسـة مطفأة ، وكل المدرسات كانت عـيونهم مطفأة ، لكن الحلم لـم يفـارقنى . الشئ الوحـيـد الذى جـعلنـى أقـبل الذهاب إلى المدرسـة كان مـخبـئى الذى ينتظر تواطؤ صـمت الظل مع همسى الخـفى . لكنى فى نهاية الـيوم الدراسى كنت أشعـر أن رأسى ينتفخ ، أحيـاناً قليلاً ، أحياناً أكثر مما كنت أحتمل.

ورث أبى عن جدى فلسفة الحياة الرغدة والذكاء الحاد فى إدراك ثغرات

الزمن لا يسقط فـى هوتها بل يسدها ويبنى عـليها . كـانت علاقتـه بجدى علاقة وقـار خاص ، تلك العلاقة التى تتـماهى فيها حـدود الزمن المنسرب بالواجب مع الهيبة التى لا يملك المرء إلا أن يتوقف أمامها فى رهبة ويخضع لجبروتها . لم يـسمح لأحد أن يثور في وجهه حتى جـدتى . وكان لها طبع حاد ، ولم أعرف سببه رغم ما عاشته من زمن رغد ورضا زوجى - وإن لم أدخل فى تفاصيله بالطبع - كان يشعر بإحساس خاص انه تجاه رجل قد لا يجود به الزمن مرة أخرى فيكاد يسجد له إجلالاً .

ارتفعت أسعـار بعض الممتلكات إلى حدود فلكيـة ، فكان يتخلص من الممتلكات القـديمة ، ويشترى الجديد فى المناطق الأكـثر قرباً من المستـقبل . كان جـدى حين ذاك يتقلص ألمـاً على ممتلكاته ، لكن فى هدوء يقـترب من صلاة العـشاء كـان يشرح الأمر لـه فى هدوء فيقـر عيناً ويسـتقر قـلباً . ثم يشـترى الأقل سـعراً ويوظف الفـارق فى أغـراض أخرى ، بينمـا يستـغل علاقـاته القديمة فى الحـفاظ على شئ من النفوذ والهـيبـة ومعرفـة اتجاهات الريح السياسية والسوقية دون أن يفقد وقار طقوس عائلة تكونت من الثروة والذكاء وحس بالجمال دافق . جـدى وأبى جسر يتصل بطرف منه بالماضى ويطرفه الآخر إلى المستقبل ، الماضى تحدد ، أما المستقبل فكان يؤدى إلىّ .

نقطة من ضـوء كانت تشع مـن داخلى لا أعرف لهـا مصـدراً ، تتمـدد وتجتاحنى لتحتوينى ، لم يدركهـا أحد وكان هذا يؤلمنى ، كانوا يعتقدون أن روحاً قـد لبسـتنى فيـأتون بالدجالين يقـرأون على رأسى من كتب صـفراء ويصنعـون لى الأحـجبـة التى ألقـيهـا فى النهـر . حين يئـست منهم رحت أتعايش مع روعة الضوء الخارج منى . أفتت سنونه على أطـراف أصابعى ، وأرسم عليه كهوفاً أخبـئه فيهـا أحكـى له عن قـــدرى وأخاف منه .

كان صديقى الجنايني قد سلط عليّ دبابيره مما يجعل رأسى كطبقات شوارع القاهرة مجتمعة ، أو هكذا توهمت ، وما يزال ينظر فى دهشته السرمدية التى لا تنتهى . وكان صديقى الفأر اللذيذ قد نهش ثلاثة أرباع جسدى تقريباً فاستحال معظمه إلى ضوء ، وكنت أكاد استسلم لقدرى الذى لم أعرف إلى ما ينتهى .

فى بدايات المرحلة الإعدادية تدفقت عليّ الألعاب الألكترونية . كان الحصول عليها صعباً . لكن أبى فى سفرياته المتناثرة كان حريصاً على إحضارها لى من أوربا - فقد كان يؤمل أن أكون الامتداد التكنولوچى الراقى له - كانت بالنسبة له لغزاً وكان يقدر أننى أحب الألغاز - وانها لعبة زمنى التى قد تكون يوماً ما قدر زمن قادم لن يقدر عليه - لم يضايقنى أن تتفاخر الأسرة بمقتنياتى الألكترونية أمام من لا يملكون الحصول على تلك الاختراعات العجيبة . واستغرقتنى لعبة الأزرار والشاشات وصرت أنفر من زملائى . كانوا ما يزالون يلعبون الألعاب الساذجة بأدوات بسيطة . فيما كنت أستطيع أن أدير معركة كاملة على شاشة صغيرة واستحضر القوى العظمى على مربع صغير .

حين بدأت مرحلتى الثانوية كنت قد بدأت مرحلة الاختراع . فى البداية كانت الأشياء الدقيقة تلفت نظرى ، وأغيب فى تأملها ، محاولاً فك ألغازها ، ثم أعيد رؤيتها بعين لم ترها من قبل . والأحلام تتدفق لتجعل من الشئ أشياء أخرى . وكمن مسه شيطان فك وتركيب الموجودات دفق من داخلى خيال لم أستطع كبح جماحه . لكنهم لم يكونوا يدركون ما أفعل .

رحت أرسم كل ما يخطر بخيالى ، واستدعى المعلومات من الشبكات العالمية . أزدحم رأسى بكم رهيب من المعلومات عن كل شئ . حاولت أن أنظم وقتي وذهني وخيالي . استطعت تنظيم وقتي وذهني إلى حد ما . ساعدني جهاز الكمبيوتر فى تسجيل كل ما يعن لى ، وتصنيفه للعودة إليه متى شئت . لكنى لم أستطع أن أنظم خيالى .

توصلت إلى تركيب أنواع جديدة من العطور من خلاصة نباتات صحراوية نادرة مخلوطة بقليل من جلد التمساح ، مما جعل العطر يكاد لا يتلاشى . ومن أعواد النباتات استطعت استخلاص مقاومات للآفات دون الحاجة لرشها بالمبيدات . رسمت المئات من موديلات العربات التى لا يتخيلها بشر . استخدمت فى بعضها أشكال حيوانات مطورة بهجين طيور ما قبل التاريخ ، فصنعت أشكالاً لم يألفها بشر . استهوتنى الأساطير فطالعت أساطير الهند والصين والأغريق والهنود الحمر والقبائل الافريقية والحضارة العربية . أثارت الأساطير فى خيالى اختراعات لا حصر لها فصرت أصنع أساطيرى الخاصة .

فى لحظة من الزمن أحسست أننى أضرب فى أرض بور لا تنبت إلا الصخور . صماء فلا أحد يفهم . لم أكن موهوباً فما توصلت إليه من اختراعات سجلته وحصلت على براءة اختراع عن الغالبية العظمى منه . بل أغلب زملائى وأقاربى ومن عرفت كانوا يعتقدون مساً من جنون قد انتابنى.كنت حقيقياً مع نفسى ولم ينتبنى الغرور أو ادعاء قدرات أكبرمن حجمى.كل ما توصلت إليه صنعته فى معملى الخاص أو جربته على نفسى وأحياناً على بعض الحيوانات . الغريب أننى لم أكن اشعر بأى ألم

فى رأسى فأجدها طبيعية . الأفكار والخيالات تتدفق بغزارة لكنى بمجرد أن تلمس قدمى عتبة الفصل أشعر برأسى يتضخم ويكاد ينفجر .

حاولت أن أقنع نفسى أنها حالة نفسية تعترينى نتيجة اختناقى من الحوائط وزمن الحصة المفروضة على أنفاسى ، وعدم حبى للمدرسين والمدرسات لكننى وجدت نفسى لا أختنق فى معملى المغلق الشبابيك والباب ، لا أعتقد أننى من النوع الانطوائى . فقد كانت رغبتى فى مصادقة الآخرين حادة وعميقة ، لكن ليس أى آخرين . كان لابد أن يكون لهم رهبة ما ، سحرها ، دهشة ما ، شئ لست أستطيع تفسيره لكنهم لم يكونوا يدركون .

صديقى الجناينى كانت له علاقة غريبة بالأشجار والزهور . كان يوشوش لها فتتماوج بالوشيش له ، ربما لذلك لم يكن يجب أن يسمع الناس . لم يستطع أحد أن يتحدى وجوده ، ويوم فعلتها جدتى وطردته لأنه نظر إليها بعين لم تعجبها ، يومها ذبلت الزهور واختفت رائحتها وتساقطت أوراق شجر الفيكس والبومباكس رغم أننا كنا فى أوج الربيع وصارت تصدر رائحة عطنة من الماء الراكد فى أحواض الزرع الذى رفض الطين تشربه وأبت الجذور أن تمتصه . ظلت الحديقة على تلك الحالة ولم يدرك الأمر سوى جدى الذى استدعاه وأومأ له فامتثل . من يومها لم يغادر الحديقة ولم يستطع أحد الاقتراب منه ، فقد أدرك الجميع أن هناك مساً روحياً فيما بينه وبين النبات والماء والنسمات الربيعية وزفيف الشتاء ودفق حرارة الصيف .

كنت الوحيد الذى يجرؤ على الاقتراب منه ، أتأمل فى دهشة الناب والضرس والسنة الباقية فى كهف فمه . وكان يتركنى أفعل ، وأحياناً يداعبنى ، وأحياناً يحكى لى حكايات الجان والعفاريت والعالم السفلى . كانت جدتى تقول انه (مخاوى) وانه على اتصال بالعالم السفلى . ولم أكن أفهم ما تعنى . لكن شيئاً ترسب فى نفسى انه كائن نصف انسان ، نصف جان ، وأشعلت حكاياته عن الجان ورهبة الآخرين منه فى خيالى هذا الإحساس . وكنت أرى عينيه تتحولان فى موسم الفيضان إلى الأزرق وفى موسم التحاريق إلى الأصفر ، وفى الشتاء إلى الرمادى ، وفى الربيع إلى الأخضر ، وكنت أندهش من تحولات الألوان فى المحجرين .

يوم أن قال لى أنه سيطلق دبابيره علىّ ، لم أفهم ، ولم أكن أتصور أن يفعل إنسان كل هذا . فى ركن بجوار غرفته لاحظت أنه فى ساعة الغروب ترد أسراب من الدبابير ، تتجمع بألوانها المتعددة ، وتحط إلى كهف كان يخفيه ، إلا من مدخله بجذوع الأشجار ، وكان يصفّر لها فى اللحظة التى يتوارى فيها قرص الشمس صفيراً لم أسمع له مثيلاً فى حياتى فتنجذب إلى كهفها ، كما لو كان شئ يمتصها من داخل الكهف .

وحين يطمئن إلى انجذابها جميعًا ، يغلق الكهف ويسند ظهره إليه يغمض العينين ، يتمتم بكلمات غير مفهومة وكان يصلى فى صمت ، أو يكمن لقدره كى لا يفر منه .

بقدر ما كانت قسوته وهو يسلط دبابيره على رأسى ، بقدر ما كان يحنو علىّ فى مواجهة الجميع ، ولم يسمح لأحد أن يمسنى . أحدهم - وكان قريب لنا - كانت له عينان كمقبضى قفة وأنف أرنب هارب وروح دهليزية

خبيثة . كان يبدو لأسرتنا حكيم زمانه . جدى هو الوحيد الذى لم يكن يحبه . لكن الجميع وإن لم يحبوه فإنهم كانوا ينبهرون بقدرته على دفن الثروة تحت جلده . لكن ذلك لم يكن يقنعنى . فقد كان تقليدياً فى مفهومه للثروة . وكنت أراه - ولست أعرف على وجه اليقين إذا كانوا يرونه كذلك - بجلد مبقع بكل ألوان العملات العالمية من فرانك ومارك ودولار .... الخ

كان يعانى فعلاً من نوع من الحساسية تجعل جسده يشف عن ألوان النقد التى يخفيها تحت جلده ، عرض نفسه على أغلى أطباء العالم ، قام بتحليل دمه وأجزاء من أنسجة جسده فضلاً عن خوارج الطبيعة هذا بخلاف كافة صور الأشعة المقطعية واللامقطعية ، ولكى يخبئ البقع التى تتوالد اضطر أن يغطى جسده صيفاً وشتاء ، ويلبس القفازات بادعاء انها تقيه من التلوث ، والكوفية برغبة حماية رقبته من الرطوبة حتى أصبح كومة ملابس لا يظهر منها سوى رأس كنواة الدوم . توصل أن يجعل منها زهرة تشبه الزهور البلاستيكية التى تقترب فى شكلها من الزهور الطبيعية باستخدام أنواع من المكياج يضعه باحتراف حتى يبدو كزهرة متفتحة دوماً لا ينبئ عن السطح الأملس .

ثلاثتنا لم نستطع أن نحتمل ذلك الشخص أنا وصديقى الجناينى وصديقى الفأر . آلمنى أن يبدو كزهرة طبيعية ، وهو رقيع ألوان ليست منه. قررت أن أتآمر عليه. لم أكن أستطيع أن أحتمل الزهور البلاستيكية . ولم يكن أصدقائى يحتملون . راح صديقى الجناينى يسلط عليه دبابيره الأشرار - كان الجناينى لديه دبابير خيرة ، وكان يطلقها على رأسى ، ودبابير أشرار

وكان يطلقها على من لا يحب ، ولم أكتشف ذلك إلا مؤخراً - راحت تنهش جسده فى قسوة بالغة وتصنع فجوات تنز سائلاً أصفر كريه الرائحة بينما صديقى الفأر يقرض لحمه ، وتجمعت الدبابير حتى غطت جسده ، لم أستطع فى النهاية أن أدرك كيف استطاع صديقى الفأر أن يلتهم كل ذلك اللحم المتراكم الرهيب الحجم ، بينما ظل على نفس الحجم لم يزد مللى جرام واحد ، وراح يمرح فى الحديقة كأن عرساً تم اختتامه وخرج منه بوليمة لم يحلم بها .

حين طلعت خيوط النهار وانكشف الفجر . كان الرجل هيكلاً عظمياً. لم يستطع أحد أن يدرك كيف حدث له ذلك . لكنى كنت أعرف . وكنت قد انقرضت لكن رأسى ظل على عمود يونانى وضع فى استقبال الفيلا التى نسكن . وجسدى الذى انقرض وصار هالة من نور كانوا يرونه جسداً، ولكنى كنت أحسه شعاعاً من نور دافق لا ينتهى . وكنت أحس برأسى فقط مانزال رأساً جسدياً . لكنهم كانوا يروننى مثلهم ولم أكن كذلك . ورحت أقص عليهم قصتى فهل يصدقون ؟!! وأنا لم أكن أصدق نفسى فكيف يصدقون . كيف بحق الدبابير !!

يوسف فاخورى

١٩٩٧/٤/١١

رائحة قربان للقمر

فى الخامسة عشر تزوجت . فى السادسة عشر أصبحت أرملة .

وجه دافق للوجود يموج بتلك الغلالة السحرية لحورية . مسها ندى الفجر ، فراح يدعو ملائكة السماوات أن تهبط أرضاً لتلمس طيف وجودها فتعرف معنى الصلاة .

عيون ليست تقبل أن تطبق الجفنين ، وتحلم على اتساعها . ليست كنساء الأرض ، لم تجرؤ على روعة حوريات الجنة ، ولكنها أيضاً كانت أكثر وجوداً منهن ، وكانت لها غلالة سحرية .

خصها الوجود بشعر يسترسل فى الليل ، وحين يكون الضوء أقل جرأة من البوح ، يترك به روعة المد والجزر التى لا تنتهى ، فيما بين وقاحة الشمس وخجل ضى القمر ، يتسلل بروعة خيوطه ويحاذر خوفه ، خوفه مِمَ .....

زوجها الذى - فى البداية - لم تحبه ، لم تكرهه . لكنه كان زوجها الذى اختاروه لها ، طيب القلب ومنكسر ، كان يكبرها ، ليس قليلاً ، ليس كثيراً . وهى بجمالها تتنفس للوجود روعة ليس يملكها ، وتعتقد أن الوجود لابد أن ينحنى ولو قليلاً لها ، وتحنو عليه ، وإن لم تعرف لماذا ؟

صانع قربان الكنيسة ، يعيد جسد المسيح إلى الوجود كل يوم ليتناوله البشر ويترحمون ، وكانوا يسمونه قرابنى الكنيسة ، فقير هو ، ليس لديه ما

يقدمه لها ، طعـامه وشرابه وكساؤه من الكنيسة ، فـقيرة هى ، لم تتطلع إلى الثراء ، فقد كان محيطها كله فقيراً .

تعجن القربان وينضجه هـو ، وكـانا يرتلان معاً ، ويصليان حين العجين يختمر ، وحـين ينضـج ويطلـق الرائحـة ، تتـصاعـد منهما آهـة تنسحـب إلى آهـات .

هى تعرف كـيف للعجين أن يختـمـر بأنفاسـها ويطلق الرائحـة قبل أن ينضج ، هو يعرف متى يشتعل حس النار ومـتى يخبو ، فينضج بينهما حس دفء القربان الخارج من الفـرن ، حين يقترب منها ، وحين يعـانقها ، وحين يشتعلان كـانت تشم رائحة القربان فى أنفاسه ، فصـارت تحبه وإلى الرائحة تهفو كأنما الحلم هى .

حين راح وليدها يدفق بالحـياة وينتفض فى الرحم ، كان زوجـها يصلى أن يمنح الرب لوليـده النور ، وحين أبصـر الوليـد النور كان الأب قـد لفظ أنفاسـه الأخيـرة ، وانداحت فى الأفق رائحة لم تعـرف كنهها ، لم تعرف مصدرهـا .

لم تحزن ، لكن حسـاً من الشجن أكثر عـمقاً من الحزن سرى فى كـيانها ولم يفـارق ، استبـاحـت لنفسـهـا أن تعذب الوجـود بوجـودها ، لم تذبل كالأرامل بلا أمل ، ولـم يخب جمالهـا كزهرة ترفض الموت ، راحت تتفتح كل يوم ، كما لو كان الشجن ينضجها فيزداد بريقها ألقاً .

توالى الرجـال يطلبونهـا ، لكنهـا لـم تشم رائحة القـربان الدافئ فيـهم ، ليس فيهم من له طيبة القلب نفـسها أو الانكسارة الحنونة ، ليس لهم ترتيلة

صـغـيرة فـى العينـين ، كانت تحـتـضن وليـدها وتعـذب وجـودهم ، وربما وجودها أيضاً ، لكن متعة غريبة تسرى فى كيانها بتعذيبهم وبعذابها .

حين بلغت من العمـر الذروة التى حلمت ذات يوم كان شعـرها مايزال له روعة المد والجـزر ، وإن كان إلى الأبيض صار ، وجهـها مازال مسـتديراً وعميقاً يهـمس غلالته السحرية ، مسها ندى الفجـر الذى لم يفارقها ، كان القمـر كقرص قـربان فى عمـيق السماء تنضـجه الظلمة ويـتجلى بدراً من سطح منزلها البسـيط الذى لم تفارق ، راحت تتطلع إليه عميقـاً لم يحتمل القمر مـرآها ، سرت فيه رعـشة جرؤ . راحت أشعـته تشتد وتمتص أشـعته الغاربة جسدها إلى رحيل الضوء ، أنسـل جسدها خيوطاً فى رهيف رائحة قربان ساخن ، شهقت شهقتها الأخيرة .. سألته :

- ترى يا قمر من كان قرباناً للآخر ؟

نفس الترتيلة التى كانت لعينيه انداحت فى الأفق أريجاً لا ينتهى .

يوسف فاخورى

١٩٩٧/٤/٣٠

فــــرد حمـــام

كانت تجلس ، لكن لكن ليس كما تجلس أى فتاة ، كل الفتيات لهن لحظة انتظار ، وجلسة انتظار ، لكنها لم تكن كذلك ، كانت حالة وجد كامن ، شفاه شبقة وعطش للارتواء ، لا يكف عن الصخب فى دمها ، ساكنة ، ككل البنات ، لا يظهرن ما بين الجوارح انتظاراً .

حتى الآن حين يتذكر المشهد لا يعرف إلى ما انجذب ، للذات الجسد المشدود كوتد عملاق وكبرياء همس الوجود الذى لا تدركه ضجة الحياة ، أم لمس منقار فرد الحمام العاشق وبشفاهها تتحرق شوقاً للهسيس .

سرب الحمام راح يراوغ قرص الشمس ويكسر الظلال ، حام وهام بالأفق وحط فى فناء الدار ، وهى كانت تنتظر ضجيج انطباق الأجنحة ، وانحسار الريح الخفيف أمام لحظة الانطباق ، وبقامتها أمام ريح ليست مرئية تنتصب ، وفيما بين غير المرئى وريح الأجنحة همس نظرة تتطلع ، ورقاب سرب الحمام تتراقص أمام النفس الانسانى لوجودها ، وهى المشدودة للأرض كالوتد تكاد تصعد بأنفاسها إلى أفق كانوا يملكونه ، وفيما بينهم كان حلماً يحلق فى اللامتناهى ويندلح فى غيمة .

كتشكيل لوحة باليه راحت الأجنحة تضم وتهبط وتهف قلبها بلحن حالم ، وفيما بين الهابط والصاعد كان ذلك المرقط حلمها الوحيد ، ولا تعرف لماذا أو كيف ؟! يهبط على ركبتها تناديه بحر أنفاسها ، يصعد على الورك الصلب المشدود ، ينقر مفصل الركبة ويتمسح برأسه فى استدارتها ،

يعرف مواضعها جيداً ولا يكرر نفسه ، ذكر ملعون يعرف كيف يعطى للأنثى حق وجودها ، ربما كان هذا ما أثارها فيه فلم تألف سواه وكانت تهرب من الرجال من عيون تقتحم قبل أن تلمس . كانت صورة والدها بكل قسوته وبشاربه الرهيب تتوافر فى خيالها كلما طالعها رجل .

كانت النسوة يتحدثن عن وليف الحمام ويتغامزن ، ولم تكن تملك من مشاعر النسوة سوى ما تسمع ، السمع دغدغة فارغة ، اللمس حس وجود ، حين كانت طفلة كانت ترقب الديك والدجاج لكنها كانت تنأى ، الديك شره ، شبق ، رجل أكثر من اللازم ، أبوها كان أيضاً رجل ، وكان يخيفها ، وكانت تهرب إلى برج الحمام وتتطلع إلى البنية فتعلمت فن العشق الذى أخافوها .

هبط السرب وشئ فى الحنايا يزغرد ، وراح يزحف صاعداً إليها يتحسس مداراتها بخبث ذكر أدرك للأنثى افتقاد وجود واحتياج لميس ، يعرف ما ترغب ويرغب فيما تريد ، خلاء صامت لا تدركه أنثى إلا فى لحظة الاحتياج القوى ، لا يدركه رجل إلا فى تجليات أعلى ارتحالات الرجولة فى الحنايا ، والصمت انكفاء وجود أكثر روعة من حد الوجود ذاته .

كانت حوافره المسنونة فى تلمسها لخلايا الركبة المكشوفة له خصيصاً وعلى استحياء ، تسعد بحس الحوافر الحادة ، ومن وهج جسدها يسرى ارتعاش فى وجوده ، تتسرب الدغدغات وتشتعل فى الورك نار لا تنكر على الخصر بوح طفل يناغى عالماً ليس يدركه ، كانت وليفته على الورك المشلول تشب برقبتها تتربص بهما . كانت أمها تنظر للورك المشلول بشفقة،

وكان البعض يسخر من خطوتها ، ولا ينظرون إلا لردفيها فى حركتهما الشهية الصاعدة الهابطة .

راح يصعد الجسد المشتعل بخطو وئيد ، مغمغماً مرتلاً فى حناياها هامساً فى الجسد المندى بالرغبة ، همس ترتيل يدعو نجوم السماء أن تنزل لترشق الجسد ، كانت وليفته تنقر الورك المشلول وتخبط بجناحيها ، لم يأبه لها ، راحت تصعد خلفه تشده من الذيل ، لكن شيئاً كان يصعد به، وكان ريش الذيل يخرج فى منقارها ريشة وراء أخرى ، ولم يلتفت ، صارت تضرب بجناحيها كمن تولول ، لكنه لم يكن يملك لها حس وجود، والأنثى التى تصعد لم تعد تدرك للجسد حدوداً .

هام إلى كتفها وكانت تنتظر قبلته والحب فى فمها . كانت تغلق الفم، راحت تراوغه فى نشوة والرغبة تشتعل فى منابت الريش وافق الوجود الذى لم يبلغه . صارت الأرض تدور والأنثى تدور حول نفسها ، والذكر يدور حول الأنثى بوحشية نسر جائع منذ أبد ، لكنها لم تشعر وكان فرد الحمام الهائم بحر أنفاسها ينقر الشفتين كمن ينقر باب كنز ، انفرجت الشفاه عن عالم الوهج ، أطل بمنقاره يلتقط الحب ، أطبقت على منقاره ، استسلم ، راحت تمتصه كمن يرغب أن يسحب الروح ، كاد يختنق ، دفدف ، رفرف ، لكنها فى الغيبوبة كانت تمتص الرمق الأخير منه ، حين انفرجت الشفاه سقط إلى جانبها دون حراك ، وكان على منقار الوليفة دم ، وفى بطن الأنثى حفرة قانية .

يوسف فاخورى

أسوان

١٩٩٦/١٢/٥

هو الذى أراد أن يعترف لى

لم يكن في كنيستنا كرسى اعتراف ، كان هذا يحدث مواجهة . التقى القسيس وجهاً لوجه أقدم له أخطائى التى لا أعتقد انها خطيئة ، لكنهم قالوا لى أن كل همسى فى الوجود خطيئة ، فصرت أخاف من همسى أن يخدش الوجود ، وكنت استحى من وجودى ، ولم يكن وجودي يستحى منى ، لكنى صرت أخاف .

طفلة كنت وكان علىّ أن أكون مسيحية ، أبى وأمى كانا كذلك وكل الأباء حين يكونوا كذلك يصير الأبناء ، ولم يكن لدى اعتراض ، بل أننى عشقت صورة العذراء تحتضن المسيح الطفل ، .. مثالية ، وبراقة ، وطفولية ، وحبيبة إلى القلب .

إلى الاعتراف قادنى من امتلكوا معموديتى ، لم أكن أحب ذلك الموقف ، ولكن لم أعترض عليه . كذبت ، حلفت ، شتمت .

هى كل أخطائى ، لم أقتل ، لم أزن ، لم أغضب الرب فيما هو أكثر من ذلك . وهل تملك طفلة أن تفعل ما هو أكثر ؟؟! لكن حين بلغت الحلم صارت لى مخاوف ، وكان الاعتراف طقساً احتملته طفولتى على مضض ، فقد كنت بعده ألعب وأجرى وأنسى . لكن ككل النواهى التى احتملت صار جزءاً من كيانى الذى لم أحتمله ، وإن قبلته على غير رغبة . ولم أعد ألعب ، ولم أعد أجرى ، وكنت قد بلغت .

لكنى فى لحظة كنت أحتاجه إلى إفضاء أو فضفة أو احتياج . تمنيت أن

تكون لمن لا يعلن عنها ... كنت أخاف الصديقات ، والصديقات لم يكن أمينات . قلت يارب ، من يملك أن يكون لى عوناً ، فقال الرب إذهبى إلى كنيستى ، فذهبت وهناك ، وجدت أبانا فاعترفت .

شابه جميلة وبجمالى أتباهى ، فى الرواق قابلته . وكان الشيب يخط مفرقه وقليل من شعر الذقن والشارب ، فارتاح القلب أن يحتكم للزمن الذى لم يبلغه .

كنت سعيدة بصدرى الرجراج وأردافى تهتز ، فأحسها فى القلب تخفق نبضاً يسعد أنوثة تتفجر بالنشوة . لا أبالى بالنظرات المصوبة ، بل كثيراً ما تسعدنى لكنهم جميعاً لم يكونوا عالمى . كنت تواقة إليه ....

لم يكن وسيماً . كان صعلوكاً لكننى كنت أرغبه وأحبه ، وأعشقه كما يعشق نسر دفء جناحيه فى الريح . هكذا ببساطة كان القلب يخفق هل تلك خطيئة يا أبت ؟!!

كان الأب وقوراً ، استمع لى ، لكنه تدريجياً صارت عيناه تتسعان ، والأنف صار كجناحين ينطويان وينفردان ، وصار لجبهته خطوط . لم أهتم كثيراً ، لكن لونه صار يتغير ، وصارت أنفاسه تتدفق كنهر يفيض ، وكان بريقاً يخرج منها ليس ذلك البريق الحانى . كان إشعاعاً صاخباً بكل ألوان الطيف . مقتحماً كأنه يرغب فى احتواء قلعة .

قلت له إنى أحب ذلك الصعلوك وجسدى يناديه بكل الجوارح ، وحين يودع الفجر رؤى المبهم الليلى ، يحلم ندى شبقى إليه بدفق ارتعاش ملكوت الرب فى جسدى .

لكنه مد يده إلى قـمرى ، كم كنت أعشق استـدارته وشمـوخ حلماته .
وهبط إلى قدس أقـداسى الذى لا أملك سواه من ملكوت العالـم لحبـيبى .
لكنه لم يكن يبحث عن الرب . كان يبحث عن متاهته .

أبت ؟!!

لم أستطع أن أكـمل ، كانت لحيتـه وصوته الذي يتجلى بنعـمة الرب ، مازالا يدويان فى أذنى ، وفى جـسـدى - كان حـفيف لحيتـه يدو ى أيضاً - وروعـة حلم لم أستطـع أن أفضى به لحـبيـبى ... وتصـورت أننى يمكن أن أحتـمى من خجلى براعـى الرب . طأطأ الرأس . أدرك أن سيـده غاضب . تمتم وكأنما كان يهذى . كنت أريد أن أعترف لك .. وكأنه يعتذر .

يوسف فاخورى

١٨/ ٤/ ١٩٩٧

نصف الفارغ .. نصف الملئ ..

من يدرك للمسيح وجهاً ؟!

كأس النبيذ المعلق يراقص وجه المسيح .

الكأس والليل وأجراس العيد ، وأنا وحيدة .

الكأس نصف الفارغ ، نصف الملئ ، على صفحته تتداعى أيامى . شريط سينمائى يتدافع ويتدفق بالصور ويجتاحنى معه إلى آفاق كانت على الأرض . صارت الآن تهيم أفقاً . ولا أملك إلا ضبابات الذكرى ، وأحدق فى الكأس .

الأبناء شربوا أنخاب العيد ورحلوا . وحيدة سأبقى ، تزوجوا واحتضنوا كياناتهم ، صار لهم أولاد وصار لى أحفاد يناغشون وجودى أحياناً ، ومنهم ينبثق للوجود روعة صوت يسلل الضوء إلى روحى ويبعث فى الوحدة شوق دبيب . زغرغات تصاعد الصمت بحفيف دفق القلب والرضا . زجاجة النبيذ عامرة لم تزل بالأحمر الزاهى يتألق . بفرح دموى فى ضجيج الضوء المسائى . يذكرنى بالمسيح يصعد الجلجثة ولا تصاعده . قدماه لا تقويان ، والجبل عاص . وجهه يتسايل بالدم .

وحدها إمرأة تلك التى أعطته منديلاً بجفف العرق والدم . فانطبع الوجه بالدم ، وصار المنديل لوحة للتاريخ . ذاك الذى قدم دمه قرباناً . صرت الليلة أشربه وأتلق بزهو دمه ، الذى دفع الثمن بزهو دمى المهدر دون ثمن . صببت كأساً احتفاء بفرحى الخاص . كنت أحاول أن أبحث عن وجودى وأنا وحيدة . جرعت رشفة . بعدها قلت ربما كان

حزنى الخاص . فيما بينهما كانت حياتى التى خفت منها قبل أن أحبها . صعب على الانسان أن يخشى حياته . الأصعب أن يظل يخشاها إلى المنتهى.

الكأس نصف فارغ ، نصف ملئ ، ورحت أحدق فى صفحته .

هل كان الله يتألق فرحاً فى طقوسى الميتة . لا أعرف كيف اكتشف الآن أن طقوسى ماتت . لم أكد أشرب من الكأس بضع رشفات ، ولست سكيرة . لكننى الآن اكتشفت مالم أكن أراه . أننى أمارس ما كان منذ عشرين قرناً . الزمن يتسايل بحس دمى ، لكن لا يجمد طالما أنا فيه . وأنا أحيى عشرين قرناً وأحيا بها ولست حية ، وأنا أشرب الرشفة الأولى اجتاحتنى رعشة ، لم أستطع إدراك كنهها ، فلما صرت وحيدة خفت من نفسى ، الآن أريد أن أعرف لماذا خفت من نفسى . أهو حس الوحدة ، أم وهم عشته واكتشفت الآن رعبة الذى اغتال عمرى ؟! أخاف من نفسى ، أخاف من نفسى ، أخاف من وحدتى من ذلك الذى رصد حياتى ، ترى أكان وهماً ، أكان أكثر حقيقة من وجودى ، لست أملك إجابة ، لست أملك سؤالاً ، لست أملك نفسى .

ليس سؤالاً عن طقوس ماتت . لكن تلك مسألة أخرى . البشر لا يعنيهم من المأساة سوداويتها ، لو كانت كذلك لكرموها . لكنهم يبحثون عن ألق المأساة وروعتها ، عن رفيف ألم يكتشفون منه عميق وجودهم . كنت أعتنق الموت للحياة . على أمل أن يمنحنى الموت حياة لم ألمسها لكن الأعمق أننى ظللت أصارع أن ينتصر موتى على الحياة وحين اقتربت من شفاهه فإننى للمرة الأولى أخشى الا يمنحنى إلا موتاً كاملاً . لست أرغب

فى شئ من الحياة الآن . فمن عاش باليأس يموت . لكن شكاً يؤرقنى أن تكون حياتى قد ذهبت بلا ثمن الكأس نصف فارغ ، نصف ملئ . وكانت صفحته تتماوج وتشف وجهى ولا تبوح . طفلة يتيمة تربيت . اليتم فى سن صغيرة ذل أن تلتمس لك أباً فيتعطف عليك أحدهم بالأبوة ذلك هو اليتم الحقيقى . سحق هو الإحساس برعب طفل يفرغ عالمه من أب حقيقى . كل طفل يحتاج إلى رحم دائم . الأب أيضاً يَملك رحماً دائماً . الأب أيضاً يملك رحماً غير معلن . حتى ولو كان فى اطلالة عينيه . تربيتى اليتيمة فى مدارس الراهبات منحتنى حساً توحيدياً . صار المسيح رجلى وأنا طفلة لا تعى للرجل حس لميس ، وصار أبى .

مات أبى وأنا فى الثالثة ، فلم أتذكر فلم أتذكر وجهه ، ولم أتعرف عليه سوى من صورة يتيمة لم أحبها . واقف أمام جدار بينما جدتى تجلس بارقة العينين إلى مجهول ليست تدركه . أحاطونى بصور المسيح من كل جانب . معذب وبرئ عن أطماع الدنيا وعذابات الجسد . سهام تخترقه من خارجه، يتطلع بعينيه إلى آفاق الرب ولا تسقط عيناه إلى داخله . ليس مشغولاً بكيانه . تشده عذابات الأرض لتصعد به إلى سماوات لا يدركها إلا هو . صارت العذراء روحاً أعلى لى . ولم تكن مثالاً . أطل على وجهها فى الكنيسة فأجده أمومياً ومثالياً ولا أثر لرغبة فيه . وجه جميل لا يمت لمتناقضات العالم . فارتاح على ظل ألوانه ، وألقى عليه ظل يتيم وأطمئن قليلاً . أحببت المسيح كما لم أحب زوجى - كان زوجى رجلاً حياً يستطيع أن يمنح أنوثتى حق التجلى - لكن عبر ما يزيد عن عشرين عاماً لم أستطع أن أبوح له . لم يكن المسيح سوى صورة معلقة أو ذكرى رجل لم يعتبر

للرجولة إسماً . ورغم كل ما يتحرق الجسد ، إلا أن روعة عذابات ذلك المختفى فى حنايا التاريخ ، لا يطل إلا بصورة المعذب ، جعلت الروح تتألق برهيف حس . طالما لاح فى الأفق حلم لا ينتهى .

الكأس وعتمة الليل والقانى يتألق بزهو دمى . روحى تهيم فى النصف الفارغ تغوص فى النصف الملئ . كانت الراهبة التى تولت تربيتى وتعتقد انها عروس المسيح . وصرت أعتقد اننى كذلك لم أكن أفهم ما تعنيه كلمة عروس . فصرت أعتقد انها حالة ملائكية يهيم فيه العروسان فى أفق لا يحط أرضاً ، خاصة أن صور الملائكة كانت تحوطنى . وكنت أرى حفلات الزفاف فى الكنيسة وأرى العريس والعروس يتألقان ، والزغاريد تنطلق ولا أعرف إلى ما ينتهى الأمر ، وماذا يعنى .

راح نهدى يعلن عن وجوده فى سن مبكر . فى التاسعة بدأت الحلمات تتورم ، وأحسها تتورم ، وأحسها خشنة ، ثم أصبحت أكثر تصلباً وراح حجمهما يتدفق وتهمس للنهر أن يعلن عن فيضه . كان يتحسس إطلالته على الضوء . كأنما فأر هو يخشى حرارة ما هو خارج جحره وفجأة انبثق عاصفاً .

فى العاشرة تدفق منى دم أغرق ما بين الفخدين . وقتها كنت ألعب فى فناء المدرسة ، وحين دفق ذلك الدافئ تجمدت مكانى . أصابني رعب من ارتكب الخطيئة المميتة . كانت الراهبات يقلن لنا ، أن هناك خطيئة مميتة . وتلك هى الخطيئة الكبرى ، وخطيئة عادية وتلك هى التى تحدث كل يوم . ذهبت إلى الراهبة وكشفت لها عن مصدر فزعى . نظرت إلىّ نظرة غامضة وحادة لم أستطع تفسيرها حتى اليوم . ازداد إحساسى اننى ارتكبت الخطيئة

المميتة ، وإن الله يعاقبني . صمتت ، ثم أخذتني لأغتسل . قالت لي ، صل ليغفر للك الرب خطاياك .

لم أستطع أن أخبر أمي بما حدث . وصرت أخاف من نفسي ومنها . تواصلت صلواتي ليلاً ونهاراً .

واستولت عليّ حالة من الفزع من المصير المجهول الذي ينتظرني . وتراءت لي صور الجحيم التي طالما أفزعتني بشياطينها ذوي القرون والأنف المعقوف ، واللهيب الغامض الذي لا يفني .

وحين حدثت للمرة الثانية ، خفت من النظرة الغامضة للراهبة فحكيت لأمي . ربتت على كتفي ، وسرحت بنظرتها للبعيد وقالت أن هذا يحدث لكل البنات . استقرت نبضات قلبي المضطرب . لكني لم أعد ألعب أو أجري مع زميلاتي . إنتابني إحساس انني أمشي كالبطة وأنا محشوة من أسفل بالقطن وحشية أربطها فيما بين الفخدين - كان هذا قبل وصول الاختراعات الحديثة للفوطة الصحية الرقيقة المنتشرة الآن - .

حين انهيت دراستي الابتدائية - وكانت في ذلك المكان شهادة يعتز بها - لم تشأ أمي أن أكمل دراستي رغم انني لم أكلفها شيئاً . كان تفوقي الدراسي وحصولي على المركز الأول يمنحني مجانية الدراسة ، ومكافأة شهرية ، لكن هذا يعني انتقالي إلى مدرسة حكومية ليس بها راهبات يتابعن سلوكياتي في السن الحرجة لفتاة بدأت أولى خطواتها نحو المراهقة .

طائر معلق في منتصف الكأس ، كلما حاولت الارتشاف نقرني . نصفه غاطس في الملئ ، ونصفه إلى الفراغ يهفو .

كيف للروح التى اغتيلت مبكراً أن تتألق . ليست الروح ذلك الشفيف يساكن الوجود لتحسس وضوء الضوء فى المعتم . الروح الق يتجلى إلى أفق ليس يعلم الإنسان إلى ما تذوب وتتناهى . روحى معلقة . وجدٌ مطلق لا يملك إلا الفكاك من الأسر . لم تعطنى الروح إلا عذابات . كانت النسوة يحكين عن متع الجسد ، ما يفعل الأزواج بهن . والبعض منهن كن يحكين عما يفعل العشاق فى جرأة كنت أندهش لها . وبقدر رغبتى تلمس حس مشاعرهن التى أخاف ، أندهش من رعب أن أصبح مثلهن قادرة على البوح والرغبة ، وأنا التى طالما كلمت نفسى . أو الصور ، لم أجرؤ على البوح لأحد . لكن الغامض كان يجتذب روحى لهن . لسحر وجدهن ، وكنت أخاف . أخاف من نفسى ، ماذا لو بحت ؟ كيف يفكرون بى ، فانكمش .

الآن أكتشف سؤالاً كان خابياً . لمّ كنت أخاف ، ولم يخفن ؟ تلك كانت مأساتى ، صنعتها بيدى أو صنعها قدرى . خفت منها وخافت أيامى وضاع ما لن يعود . لم أستطع أن أدرك ، أين تسكت الروح؟ أين يكمن حس الجسد ، وإلى ما تنفجر النشوة ؟ ترى هل يتعلق المصير على شفا فكرة ؟ كيف تسيطر علينا الأفكار فتحيل الحياة إلى فراغ يدور حول نفسه ؟ لست الآن فيما أحكى أطمح لرغبة أو فعل يخرج عما اعتدت . ليست لدى الشجاعة أن أكسر طقوسى الميتة . لكن فكرة حية تنتابنى الآن . تتحسس الخروج تحت وطء نصف الكأس الفارغ يسأل النصف الأخر المليئ . عما كان من الفراغ ، وعما يحمل الامتلاء وفى كلتا الحالتين لا أملك يقيناً . باليأس عشت ، باليأس تستمر الحياة ، وبه تنتهى ، ولا أملك شجاعة .

إلى الكأس أنظر ، يتألق الكأس فرحاً بالنبـيذ الدموى ، ينعكس الضوء على بللورة فيـتوهج بروعة من مس طفـولته لحظة موته . تماماً كـما يلمس النصف الفارغ نصف الملئ ، ولا يبحث عن سـؤال . تحت وطء حس اليتيم تواطأت بالحـيـاة . وفيـمـا بين أن أحس فـهـمى ، وأفهم حـسى ، ضـاعت مسافات واكتشفت ذات يوم أننى أفتقدت ما تمنيت أن أملك . وأن ما ملكته فـراغ وأدور فى دائرة لست أملك لهـا منـتهى . لـكن آهــه غـامــضـة فى لحظـات أكـثر روعـة من يأسى تطلـق نفسـها ، ولا أملـك لها إجابة .

- توثبت الروح وهامت . يسـتكين العدم وأرتاح قليلاً بوهج مـلامحى على صفـحة الكأس . للمرة الأولى أنـفرد بكأس كمـا انفرد رجلى بى فى الليلة الأولى ، لم أكن أعرف مـعنى الرجل . غير أنى لـم أكن أعـرف كيف أكون امرأة وحين اقترب منى ، وبدا يلمسنى ، كنت على وشك أن أصرخ ، كانـت فكرة الخطيئـة الميـتة تطارد إحـساسى . ومنذ أن قـسمت حلمـاتى وتدفق الدم صرت خطيئة ، وصار كل ما يمس أنوثتى خطيئة .

صرت حـالة رعب من جسدى ، أخـاف أن ألمسه أو أتحـسس اسـتدارته ويبجـتـاحنى مس من النار . لم أسـتطـع أن أحس ما يـفعـل الرجل بالأنثى أدركت فقط أن علىّ أن أخـضع . فيما بعـد أفهمونى بشكل مـبهم أن ذلك لابد أن يحدث لم أستطع أن أطلق حس أنوثتى من مكامنها وإن خضعت ، كانت فكرة أننى عروس المسيح تسـيطر على كيانى رغم إدراكى أن المسيح لم يمس امـرأة ، وإن للعـروس معنـى آخر غـيـر تلك الفكرة الملائكيـة التى توهمت ، وإن التى عـشقت المسيح كـانت عاهرة لكنهـا على قدمـيه تابت وسكبت الطيب بعـد أن كـرهت كل رجال الأرض تـلك الحكاية - حكاية

المجدلية - كانت تؤرق خيالى فيما كان جسدى يطلب الحياة ويرتعب . الإحساس الوحيد الذى كان يجتاحنى انها رفضت كل الرجال ، واكتفت بالمثال الذى لن تنال ، وصار المثال حجراً فى رأسى .

انفصل النصف الفارغ عن النصف الملئ وصار بينهما كتلة ثلجية ، وكانت جثتى تتمدد داخلها مستكينة . زوجى الذى كان يتمنى أن يصبح نحاتاً ، لكن ظروف الحياة ومتطلباتها جعلته رب أسرة . هبطت به من آفاق الأحلام إلى قمامة الواقع - هكذا كان يقول - فى شبابه الباكر كان يحاول أن ينحت الجرانيت بأدوات بسيطة ، ثم تنازل إلى الحجر الجيرى ، وحين تزوجنى اكتفى بالنحت على الصابون . وكانت تماثيله سرعان ما تذوب فى أيدى الأطفال وتتحول إلى رغاوى . الآن أستطيع إدراك كم كان يتألم . آخر مرة نحت فيها على الصابون كان تمثالاً لإمرأة عارية تجلس القرفصاء على وجهها خمار . تطل من ثقبيه عينان لا تنظران لشئ لكنهما تتألقان بغامض إلى أفق لا يحد ، فأوقع فيما بين فخديها لا يأبه لما بين الفخدين إنما يتطلع لغامض نظرتها ، بينما نقش على القدم اليسرى كفاً مشرعاً تتوسطه عين مفتوحة بلا حدقة وترك القدم اليمنى فارغة . ظل هذا التمثال قابعاً فى بيتنا ، ما يزال رغم كرهى له ، لكنى لم أستطع أن ألمسه .

يجتاحنى الحلم كثيراً هذه الأيام ، ترى أهو حس الوحدة ، أم رغبة النهايات ، مازال فى العمر بقية تكفى ان لم يخن ويطلق للموت حق عبثيته . كان زوجى يشكو أننى كثيراً ما أكون عنيفة فى منامى . أهذى كثيراً . أحارك الأقدام والأيدى وأدفع عنى ما كنت أرغبه فى صحوى . كنت أحلم بما يحكين عن الغرام فى الفراش . كانت جارتى التى تسكن فى العمارة المقابلة تتعمد أن تنشر ملابسها الداخلية المثيرة على مرأى منى ومن زوجى .

وتغنى أغان فاضحة . كنت أغار منهـا . لكن عجزاً كان يطل منى ولم أفهم لماذا أعجز ؟

رغم انه كـان يكره صور فنانات الإغـراء إلا انه كـان يملأ البيت بصـور نساء عاريات لفنانين من كل أنحاء الدنيا . كـان يعشق الجسد الإنسـانى فى أعلى تجلياته ، ولم أعطه لحظة تجل عبر عشرين عاماً .

كنت دائمة الشجار معه . أنتـزع تلك الصور لأضع مكانها صور المسيح والعذراء . كان يقول لى . هذا الرجل أحبـه ، لكنه معذب دائماً ، وأنا أريد أن أحتـفى بحيـاتى القصيـرة . ليس لدى الوقت لأتعذب بأكـثر مما تحـتمل الحياة . الحياة تنبض دافعة حس الوجـود للتجلى . وأنا أحتاج لدفقها ، لدىّ مـا يكفـينى من عذابـات . يسكت قليـلاً وينظر لإكليل الشـوك على رأس المصلوب وكـأنه يعتـذر ويهـمس لست أملك نبل ذلـك الرجل ، وليس مطلوباً منى أن أكـون نبياً . الأنبـياء يتعـذبون من أجلنا ، لكنـى لا أريد أن أتعذب من أجلهم . لست أخاف من الجحيم فجحيمى فى الآخرة لن يزيد كثيراً عن جحيم الأرض . يسوع أنا أحب وقاحاتى . تلك هى الحياة ، دعها تفهم ذلك إذا كانت تلك وقاحة . جرعت من الكأس رشفة ثقيلة أحسـتها كالسكين فى حلقى . وجه المسـيح المعلق يبوح بالذى لم أدرك ، الكأس لم يعد نصف فـارغ ، لم يعد نصف ملئ . به رشفة قـصيرة تترقـرق فى قاعه . كانت جثتى مازالت ممدة فى أنحاء قاع الكأس . الكتلة الثلجية ذابت إلا من رقيق الثلج . لم يعد لأجراس العيد رنين وصمت مطبق يهيم .

يوسف فاخورى

١٩٩٧/٥/٣

ترى هل يصير فرســاً ؟

لحظة من الحلم كنت أدخلها وأغلق الزمن على حلمي الذى أدركني قبل أن أدركه ، وحين كانت الأحلام تراودنى فإن صهيل الفرس كان يأتينى عبر ترددات لا أدرك أبعادها ، لكنه يأتي كالنداء هامساً فى غموض . أن أعدو لإنقاذ كائن ما لم أكن أراه ، ولا أدرك له هيئة لكن صهيلاً يتردد يملأ الفراغ من حولى حتى ترف الروح منى . ينفتح الحلم ليطردنى خارجه وينغلق على نفسه تاركنى إلى ذهول . لطالما راودنى الحلم صغيراً ، مَنْ منا لم تتجلى به الأحلام صغيراً . كنت ارتعب أن تغلق الأحلام على نفسها باباً لتتنفس عبر الزمن وتنسرب حين يشب المرء وأحياناً حين يعجز . الآن حين تتداعى تلك الأحلام واستعيد ، فإن دهشة توازى شروق الحلم تجتاحنى ، وتجعلنى اهتف فى نفسى ، كيف كان لى أن أحتمل طفولتى دون حلم ؟ !

انه يقفز فجأة دون سؤال كصديق حميم لحظة يأس ، يراودنى أحياناً فى اللحظات التى تشق فيها الروح ، فيتبدى كسحابة تتمطى فى الأفق ويغيب عنى خوف الجسد أن ينجرح بالحلم أو يغيب ، هى الأحلام تشدنى منذ نعومة أظافرى لكنها دوماً تبخل عليّ وتغلق نفسها .

الذى كان يدهشنى حقاً ومازلت أكثر دهشة سؤال ما زلت أقف أمامه عاجزاً . من كان أكثر رعباً من الآخر . الحلم منى أم أنا من الطيف ؟

حتى بدت العلاقة فيما بينى وبين حلمى كمن يجترح زهرة ويخشى التفتح .

بعض الأحلام تقفز إلى الحقيقة فجأة . تحتاج فقط لبعض الجرأة كى تكتسى باللحم والعظام . كانت أحلام الخيل التى تطاردنى تشتد ضراوتها كلما وقفت أمام ذلك الكائن المطأطئ رأسه دوماً . المقهور بعنيف الضربات ، ولا تصدر عنه إشارة رفض أو تمرد . رغم صوته المزعج ، والذى لا أعرف لماذا يذكرنى بتغير نهاية العالم . وعلامات الذل التى تبدو على وجهه دائماً ماكنت أراه كوجه دامع لطفل ضرب من أبيه ويتمنى أن يحمله شخص ما بعيد عن البيت والأهل .

لحظتها كانت فراشات من كل ألوان العالم تهيم فى خيالى ، تصعد بى آفاقاً لا يسمو إليها بشر . تشف روحى وتتماهى فى أجنحة الفراشات ، فلا أشعر إلا بالرفيف خفقاً كالرذاذ يطوحه الريح . وفيما كان همس الندى يتسامى بأجنحة الفراش وروحى المحلقة فيما بين تماهى ألوانها وتماس حدود الأجنحة بالأفق ، كان أنين يصعد صافياً ينادى أن أهبط وأقابل حلماً يراودنى . فى أحلامى المعلقة على الطفولة والتى ما كانت تملك التحقق ، كان الفرس دوماً سراباً يعدو صامداً والمدى لا ينتهى . كطائر يرف ولا يصنع صوتاً لجناحيه . كمن ينكر نفسه أن ينتمى إلى هذا العالم . كان الفرس الآتى من الحكايات يشعل صورته فى خيالى بالنار . فرس أبو زيد الهلالى يشق الصحارى والبلاد غير آبه بالمسافات ، فرس عنترة بن شداد يصرع العبودية وينتصر لعبلة ، فرس مارجرجس يصارع التنين . وحين لمست الأساطير كانت الأفراس فى الأساطير اليونانية تندف إلى البحر مزمجرة تتحدى العواصف فتصيبنى الرهبة . كان الفرس دوماً بطلاً يشب بالرقبة والخطم ولا يطأطئ . لم يحن الرأس أبداً ليس كبرياء . الفرس لا

يملك كبرياء . الفرس يملك السمو، كالنبى تتملكه حالة من النبل لا يحتمل هذا الوجود . النبل يمتلكه الفارس من فرط سمو الفرس . لكن حين يخضع لقسوة الحياه لا يصير فرساً . يصير حيواناً ينتهى أن يجر عربة . حين ذاك تصعد الروح منه إلى الآفاق . تعدو خلف النجوم وتدور مع الأفلاك . ويبقى على الأرض الحيوان الجسد مجرد أعضاء ويموت إلا من الحركة .

كان صاحب العربة يسوقنى . العربة محملة ، والطريق يشغى ، يتصاعد الضجيج كأبخرة إلى قبة السماء المفتوحة وأنا أسير كالمخمور . القروح تملأ جسدى وتبرز العظام فى مواضع لا سبيل لقليل اللحم أن يغطيها . حمراء ودامية تحفها ريح العربات المسرعة ، فيسرى فى قليل العضلات ارتعاشة ألم ، وفى العظام صليل . لسانى يلهث ويتدلى ، واللعاب يتساقط فى خيوط تنذر أنى أفقد قواى .

ان خطواتى تتعثر والعريش يضغط على فقرات الظهر ، كأنما جبل يرتعش ويزلزل بدنى ، الشارع يتدفق بفيضان من البشر والعربات من كل صنف ولون ، وكلب بقدم مصاب يقفز ، وفى كل قفزة يعوى بأنين خافت ينداح على الأسفلت ولا يتصاعد أفقاً . فتصلنى حمى الارتعاش.

كان هذا طريقى اليومى ذهاباً وعودة ، أصبحت أعرف كل من فيه كما لو كانوا أصدقاء . لكن قليلاً ما كان يجلس على ذلك المقهى . فى ذلك اليوم كان يجلس سارحاً فى عالم ليس يهبط أرضاً . كنت على وشك السقوط والطريق يغيم ولا يستجيب لأنفاسى المتقطعة . وأنين مكتوم يتردد فى الأعماق بصدى هزيل ، لكن صخب الطريق لا يترك للصدى روعة عزاء الرنين . كان طفل يعبر الطريق حين صرّت عجلات مسرعة ،

لم تحتمل صرخة أن تدوى فى أفق مـغلق برعب زحامه ، وكنت قد وصلت إلى نهاية يأسى .

فى اللحظـة التى يعـتم أى حس وإدراك كنت قـد افـتـرشت الأرض ، كملاكم سقط يحتضن الحلبة رعباً من رف ريح اللكمة القادمة .

انتفض فـجأة كمـا ينتفض فـارس فى لحظة كرامة ، وفـى قفـزة واحـدة كـان أمامى . رفـع ذراعاً وهوى على صـدغ العـربجى ، عم صـمت ذهول تجمد له المتـحلقون حول العربة يـحاولون رفع العريش عن كومـة جسدى . فيما كنت بين الـغيبوبة وغيم ملامح الجمع . قـبل أن يفيق أحد من ذهوله . يسأل العربجى عن ثمنى ، أخرج نقوداً من جيبه . وألقاها فى وجه العربجى . فك وثاقى ، وانطلق بى تاركاً العربجى يقود العربة .

بعيداً ، بعيـداً عن صخب المدينة ، فى مساحة شاسـعة من الرمال ، تكاد تكون مستوية بلا هضـبات ، والنهر يبتعد عنها حيناً ، يقـترب أحياناً ، ليس بها سوى شجـرة سنط عملاقة . بدت حين جلسنا تحتها كقـبة سماوية تزهر بزهور صـفراء ، يـتدلى منهـا ثمـار القـرض ، داكنة وبنية الـلون ، وأحيـاناً خضـراء لم تنضج بعد ، تتـعلق بأغصان تضج بالأخـضر وتغـتسل بالندى لتتجفف بوهج النهار .

بدت الشجرة بثمارها وأوراقها الخضر الكثيفة كنجفة تتوضأ بالشمس ، حرة كأنما تمتك الوجود وتصنع له ظل عـاشق . كانت الرمال ساكنة ، حارة وخشنة ، لكنها ودودة بصـمتها ورحابة امتدادها . ليس يـحدها سوى النهر والجبل وغابة نخيل بعيدة . حالة من السلام تتبدى فى وهج نسمات حارة ، تنضـح الخلايا عرقاً خفيفاً يمنح للجسد حس وجود أخضر .

ألقى بجسده المشخن على الرمال ، والنهر المقتـرب المبتعد يتـماوج بحر بخره ، ويفتـح للوجود روعة أزرق السماء على راحـة الأرض ، ويهيم فى ملكوت دفق موجه ، كـانت فيه السمـاء تتلو تراتيلها الشمسيـة التى لم تنته ولم تفن من زمن آمـون ، بينـمـا مملكـة الرمال تصـعـد بأنفاس حـبيـباتهـا للصمت .

حين استطاع أن يستولى على أنفاسه اللاهثة ويطمئن الروح إلى صمت الوجود ، فـيمنحـه سكينة لم تظلل الروح من قبل . راح يتطلع إلـىّ بعينين ذابلتين ومع انسراب الطمأنينة إلى القلب الذى لم يطمئن ، أخذت عيناه فى الاتساع ، فظل ينظرنى بدهشة لها غوار ، كـانت الشمس مائلة باتجاه عينيه مباشرة . لكن عينيه ظلتا على اتسـاعهما ولـم تتحرك الأحداق . بدت عيناه جميلتين . أول مرة أتأمل عينى حمار ..

اعترف الآن أن أول ما لفت نظرى للحمار كان عضوه - ولم تكن عيناه أبداً - كنت صغيراً ، عائداً من السوق محـملاً بأكياس الخضراوات، وكان ينهق وعـيناه تبرزان كمـا لو كان يود أن يلصـقهـما بالردفين وكانـت عيناه وحشـيتين ، كـانت البنات يتغـامزن وينظرن إلـى عضوه المشـدود فى نظرة موارية ، لكنهـا حادة وخبـيثة . وكنت ألمـح خبث نظراتهن واستـغرب أنى أخجـل ، فانسحـب وشئ ما يصعد إلى الوجنات يصادق همس الغروب .

اكتشـفت أن خجلى كان نتيجـة مقارنة غير عـادلة . حين وجدتنى على غير إرادة منى وأنا أستحم أقارن بين عـضوى الطفولى وذلك الهائل يخرج من مكمنه مصراً على إعلان العالم به ، كـأنه انتصاره الوحيد فى هذا العالم ، ربما كانت جرأته هى مـصدر خجلى ، خاصة ان ذلك الشئ كـان محصناً

بعديد من العوائق التى لا تسمح له أن يتنفس طلق الهواء ، مازلت أذكر تلك العلقة الساخنة من أمى ، حين أخرجت ذلك الشئ أمام ابنة الجيران كحركة عبيطة من طفل أكثر بلاهة ، لا أعرف لماذا فعلت ذلك حتى اليوم ، لكن فيما بعد أدركت كم تمنت كل امرأة أن تمتلك ذلك الرهيب للحمار ، وان الرجال كانوا أكثر حسداً له من النساء .

حين اتسعت حدقتاه برق فيهما ضوء كأنما حلم خبئ ، وحين صفعت العربجي وألقيت اليه بالنقود ثمناً لكتلة اللحم المهان أمامى لم أكن أعرف ماذا سأصنع به ، لكنى لحظتها لم أستطع احتمال كل تلك المهانة، لم أكن أعرف على وجه التحديد هل ما فعلته كان محاولة لدفع قهرى من الزمن أم ان الصمت كان سينتهى بى يوماً إلى جريمة .

كان البريق الغامض فى احداقه التى تتسع كمدينتين ليلة تموج بأضوائها تجعل الحلم القديم ينبثق ولا أملك سيطرة . لا أعرف كيف ؟ لكن الشمس كانت ، وحمراء كانت ، والأفق ينضح بحرارتها ، فرس من نار كان يهبط ، عرقه يشتعل مجمراً ، بحوافر من ذهب وعينين من زمرد ، وحفيف طيفه والريح يرسلان وتراً سيمفونياً لا يملك الطُهر إلا أن يتوضأ له بالشمس ليكتمل .

كان حلماً قديماً أن أحيل الحمار إلى حصان ، دوماً كنت امام كائن مهان يضربونه بقسوة ، عظامه ناتئة وجسده قذر ، لا يملك من قدره سوى النهيق، وبقدر ما كان صوته يزعجنى كنت استدعى على الفور صهيل الفرس فى خيالى ، وكان صهيل الفرس يستدعى صوت الكمان ويسحرنى .

كان أحد الجيران يمتلك آلة كمان قديمة ، فى انسياب الصيف ، يأخذ زوجته التى كان يحبها كزهرة القرنفل وإلى سطح العمارة يصعد ، على ضوء القمر يقرأ لها شعراً ، ثم يمسك بالكمان ويبدأ العزف كعاشق إلى آفاق نجم مرصود له يصعد إلى مدارات الكون ، كنت أتسلل إلى السطح وفى الركن أجلس منبهراً . كانت زوجته تهيم مع اللحن كما لو كانت تغزل خيوط صهيل الكمان على جسدها بحلم لم أدرك مغزاه صغيراً ، لكن المشهد لم يفارق خيالى ، لا أعرف لماذا كلما سمعت صهيل الفرس يستدعى إلى ذاكرتى صهيل الكمان السحرى ، وعلى أطراف سحر الكمان يأتى صوت صياح الديك ، كلاهما يصعد إلى السماء ، وحده نهيق الحمار يشعرنى انه يثقب الأفق كجرح لا يلتئم .

قلت له سأزوجك مهرة ، فلم يفهم !

قلت له إن صوتك لابد أن يسرى فى الكون ، لا ان يثقبه ، فنظر إلىّ باستغراب .

قلت له لابد ان تغضب ليس بالرفس فقط ، لكن بالرفض أيضاً ، فانتصب عضوه .

قلت له لا يمكنك أن تحتمل الألم دون ثمن ، فسال لعابه فى بله .

قلت له هل تشعر بالرثاء لنفسك ، فنهض .

قلت له لا يمكنك أن تظل حماراً بلا كرامة ، فارتخى عضوه .

حاولت أن أقلد صهيل الحصان فى أذنيه لم يستجب ، رحت أعدو عدو فرس أصيل لكنه لم ينظر لى ، قلت فى نفسى، أنا انسان وهو حمار ولن يصدق الحمار انساناً، فكيف يمكن استخراج معجزة من حمار؟

وكدت أيأس لكن خاطراً برق فى خيالى .

أحضرت له لبؤة وطاووساً وديكاً أحمر ، قلت ، فلتعلمه اللبؤة فن الجنس والمداعبة ، وليعلمه الطاووس فن الكبرياء والإيقاع ، وليعلمه الديك فن الأصوات واستقبال الضوء .

ربطته فى وتد عميق فى الأرض لثلاثة أيام ، أحطت الثلاثة بسور من السلك على بعد أمتار منه ، قلت فى نفسى ، فليشاهد أولاً وليتحرّق أن يقترب منهم ، كانت اللبؤة تزمجر وتدور فى محيط الحظيرة ثم ترقد رقدتها الشهيرة ، بينما الطاووس يتهاوى بخطواته الوئيدة مطلقاً لريشه أن يتثنى بحفيف الريح ، والديك يقفز على شائك السلك يتطلع إلى الأفق ويطلق صيحاته .

فى غروب اليوم الثالث أطلقته ، وأطلقت اللبؤة من حظيرتها ، وراح ينخر ، ويتسع منخاره كما لو كانا كهفين ، وينهق كاشفاً عن أسنانه ، وزبد يتسايل من فمه ، ابتعدت عنه ، لكنه لم يهدأ ، زمجرت قليلاً فخفت صوت نهيقه ، زأرت كاشفة عن أنيابها فطأطأ الرأس والرقبة ، راحت تحوم حوله ثم رقدت كاشفة عما بين الفخدين ، اتسعت عيناه ، وفتحة الأنف ، وشهق شهيقاً لم يجرؤ أن يتحول إلى نهيق .

راحت تنظر إليه بشبق ، وراح يلوى الرأس ويدور حول نفسه ، اقترب منها وراح يتشمم مؤخرتها ، بطرف ذيلها القوى ضربته على أنفه ، تراجع قليلاً وراح ينظر لها بدهشة ، نهضت على قوائمهاوراحت تنظر لعينيه ، تسايلت دمعتان ، حط أرضاً وانكمش ، راحت تزوم حوله ، ثم ما لبثت أن

سكنت إلى جواره ورقدت ، بظهر يدها راحت تمسح الدمعتين ، وتهف وجهه الحزين بحر أنفاسها ، انتصبت أذناه ، وكاد ينهق لكن شرراً تطاير من عينيها أسكته ، وان لم ينقطع لهاثه ، راحت تتحسس جسده بشفتيها ، وشم فيها رائحة لم يعهدها ، شمت فيه رائحة لم تألفها كانت رائحة شبقه ، شب شعر الجسد واشتعلت المنابت ، راحا يتحارشان ، يتهارشان ، يتشابقان ، يتداعيان وكان حلماً .

فى اليوم التالى أطلقت الطاووس ، سار يخطو كأنما يسحب خيوط الشمس من الأفق ليودعها سر الغروب ، أطلق ريشه فصنع نصف الدائرة، انعكست أشعة الشمس الغاربة على تيجان الريش وصارت تومض ألوان الطيف على عينى الحمار ، انتابته حالة كوميدية وأخذ يحاول تقليد الطاووس ، لكن حوافره كانت تضرب الأرض وتثير الغبار ، انكمش الريش وراح الطاووس يعدو بعيداً ، أحس بالذنب ، راح ينقل أقدامه فى تثاقل خلف الطاووس ، لكن رشاقة تسللت إلى خطوة لم يعهدها من قبل جعلت غامضاً ينتشى فى تجويف القلب منه ، راح يداعب الريش المنطوى كأن يعتذر عن جلافته لكن الطاووس شب برقبته وراح يصغى لصوت الغروب الخفى ، راح يعدو عدوا وئيداً فى دائرة لا تنكسر ، كأنما تطوقه فلا يفلت من إيقاعها ، كان صوت ساقيه يتكسر مع إيقاع الغارب ، ان الضوء يأتى من البعيد ، شب على قائمتين وراح يراقص ظل الطاووس على الإيقاع المتكسر الضئيل لصوت الساقين ، أطلق الطاووس الريش فى نصف دائرة وانتشى وكان حساً يهيم .

لم أطلق الديك ، فقد انطلق دون إشارة مني ، كان شقياً دائم الصياح ، قفز إلى ظهره مباشرة ، راح يدغدغ ظهره بأظلافه ، ربما كما تعود ان ينبش الأرض ، ربما لينبهه انه موجود ، ارتعش قليلاً ، لكن الديك لم يأبه الارتعاش ، على إيقاع فرحه الداخلي - نعم الديك له فرحه الداخلي - راح يرقص ، وأظلافه الحادة تدغدغ كيان الذى تعود الأحمال الثقيلة كان شئ يتوالد فى عميق صمته المثقل ، الوقت يقترب من رحيل الظلمة وارتشاف منابع النور ، قفز إلى رأسه وأطلق صيحاته ينادى الضوء الكامن فى رحم الظلمة أن يتجلى بالنور الباهر ، حاول أن يطلق نهيق استجابة لصياح الديك ، لكن صوته لم يكن إلا سراب صهيل ، خمشه الديك بأظلافه ، وكلما حاول أن يطلق الصوت تحشرج ، تسايل الدم وجرى خيوطاً على وجهه ، رغم هذا لم يشعر بالألم وإن شعر بشئ من الأسف انه لم يستطع ان يحاكى صوت الديك ، لكن صوتاً لم يألفه راح يتدفق منه ، وإن كان فيما بين الدهشة والشك راح يفتقد ذلك الخشن الذى كان ، استجابت أصوات الديكة من القرى المجاورة لصوت الديك المؤذن لتشربات الضوء ، وكأنما منشد يقود الكورس ، تصاعد لحن رهيف يعانق صمت الظلمة الراحلة بصخب الضوء القادم ، راح النور ينتشر ، وكان يحاول أن يجعل لحنجرته نفس الشفيف الذى يشق روح البحر إلى الروعة القادمة ، قفز الديك من على الرأس إلى الأرض فى مواجهته تماماً ينظر له فى ثبات ، وكان الضوء يبوح .

حين انكشف النور عن تفاصيل شواشى غابة النخيل ، والنهر المتدفق بغير ملل ، صاروا أصدقاء ، يجلجلون بالأصوات ويتناغمون بالقفزات ،

ويلعبون كأنهم فى روضة أطفال . لم يعد ذلك المهزوم يتدفق بالجراح والدم السائل ، وقهر لا ينطق ، صار له صوت كأنما الذى كان لم يكن ، وله خطو كأنما الريح هو ، حين انداح من الأفق آذان الظهر أمسكت بالناى وأرسلت أنفاسى فانسابت النغمات .

وثبت اللبؤة فى قفزة واحدة ، وراحت تعدو نحو غابة النخيل ، فرش الطاووس ريشه إلى عميق النور انسرب وغاب فى قرص الشمس فلم استطع التحديق ، صاح الديك بصياح عظيم كأنما غابة ديكة صاحت فى صوت واحد وإلى النهر انحدر وفى صمت الأزرق ذاب ، بقى صديقى ، أصبح جميلاً وأرق من ان ينتمى إلى عالمه الذى كان نظر إلى نظرة طويلة وراح يدفق بالعدو على إيقاع لم تألفه أذناى ، وكانت رقبته تشب افقاً . كان يصعد إلى الأفق وخط ظل داكن يظلل حواف جسده ، لم أعرف إن كانت روح فرس لبسته أم أن معجزة لا تقوى على البقاء أرضاً ، كل الذى أذكره اننى وحيداً صرت تحت شجرة السنط ، رحت أنظر إلى ثمارها ، واقتطف بعضها وأذوق مرارتها .

يوسف فاخورى

١٥/٥/١٩٩٧

كانت لهما أجنحة حية

كانت تبحث عنه . كان يبحث عنها . فيما بين الظلمة وضوء الروح كانا ، ورهان معلق صار خيط تواصل بينهما وإن لم يدركاه .

فى الزمن الذى يحتاج إلى الخشونة بتدر نعومة أظافره قدر له أن يلقاها ، كانت ملامحه حادة . بمقاييس الجمال لم يكن . فى زمنه لم يصبح للجمال الرومانسى حسن وجود . والوجوه صارت ميتة ، الوجوه الخبيئة هى التى تفصح فجأة وعلى غير توقع تتبدى فيتحسس الناس ملامحهم ولا يجرءون على النظر إلى الخبئ فيقولون إن الدنيا تغيرت .

فقير ، مهمل ، إلى النبذ أقرب ، ملامحه إن جردت إلى الحمار أقرب . يوماً اكتشفته محرومة وكان عطشاً . ثرية تبحث عن رجل ، تلك قصة معادلة ، كنه أنصت قليلاً لروعة قدمت إليه صدفة . محتاجة وجدت عطشاً فى زمن خشن . راحت تتحسس ملامحه التى هى أكثر حدة من موسى حلاقة ، وأكثر جرأة من حمار وحشى . لعينيه وقاحة من يخسر إذا فشل ، راهنته إنها تستطيع أن تخبئ ملامحه فى أصابعها وترهنها . قال فى نفسه النساء موهبة وسكت .

طفلة نمت لها ملامح إمرأة . حين لم يبلغ طولها ارتفاع منضدة زحفت إلى قلبها مشاعر إمرأة ، فصارت لها تلك النظرة التى باتساع فرجار على خارطة ، وإنطلاق سهم من مكمنه الضيق إلى نقطة فى هدف . فى باكر العمر باعها أبوها لثرى عربى كان يطلب طفلة تصبح إمرأة . كحيلة وذات

كعب مستدير وناعم ، ولها جسـد دافئ . حين استولى الذى أصبح زوجها على دفء جسـدها لم يستطع إلا أن يدفئ برودة شيـخوختـه بدفق السـاخن فيها ، وينام محتضناً كيانها الذى لـم يعد طفلاً . تهفو شيخوخته إلى الأنوثة فلا يتبدى إلا بخار .

يوماً راحت تتأمل أخاديد وجه العجوز وتمر بأصابعها فيما بينها . كانت ملامحه تنهار حول أصـابعها . لم يئن أو ارتجفت الملامح ولا نزف الوجه . راحت تمضغ أخاديد وجهه ، والوجه ينكشف عن مسـاحات بيضاء لا حياة فيهـا . صارت تستمـتع باللحم النيئ البارد إلى أن تلاشى . كانت قـد أكلته فخرجت زفرة .

حين سرت الأخاديد العجوزة فى خلاياها واستقرت صارت ترى نفسها فى المرآه عجوزاً شـمطاء . لكن الآخرين كانوا يرونها فى نعـومة زهر الليل الأبيض ، صارت تخاف نفسها ، وصار الجـميع يرغبها لكن القلب كان قد أصبح حجراً .

لم تكن ساحرة ، لكنها أصبحت صائدة لملامح الرجال وصارت تترصد فرائسها كما يترصد صقر فريسـته من أعالى السـماء . وحده بملامحه المركبة قادر أن يمنحهـا روعة أنوثة صارت حجراً ، شئ مـا فيه ، شئ ما فيهـا مغاير عن هذا العالم . ليس منه .. ليس فيه .

حين سألته إن كانت تستطيع أن ترقص على ملامحه ، سخر منها .

راحت تطلق خيوطاً حول وجهه . لم يشـعر بالخيوط التى كانت تلتصق بوجهـه وسرى خدر للذيذ فى حنايا الوجه . حين أنهـت رقصتهـا كان وجه

الطفل الخبئ منه قد أضاء . وكان وجـهها يتجلى بذلك النور الذى لا يبوح بنفسه إلا عبر رغرغات طفل .

ذات يوم تهـشم وجهه ، كـان فى الحادية عـشر من عـمره حيـث الوجه ينسحب إلى آخر . وفيـما بين الانسحاب والتشكيل صار وجهه ركـاماً عبر حادث . وحين أعيـد تشكيل وجهه صارت مـلامحه تركيـبة عجيـبة تخبئ تحت سطحهـا وجه طفل لم يمت ، ولـم يمسـه العالم بمخاوفـه وظاهر ملامح إلى الحيوانية أقرب .

انقسمت نفـسه بين المقبور من ملامحه والبـادى منها ، وحين يمـس إمرأة وتـتـحـسس مـلامحـه لا يدرى أيهمـا تتـحـسس ، الخـبئ أم الخشن إلى حـد الصلابة . لكن الذى لم يدركه ، فـأدركته هى فيه إن جاذبيـته إنما كانت فى ذلك الطفل المخبـأ فيمـا تحت الملامح المعلنة ، فى سراديب مـاض حاول أن ينساه فوجد من يتذكره .

قالت له : النـساء موهبـة . والنـساء رحم مـفتوح دائمـاً ، ليس للجنـس، ليس للأمومة . تلك ليست إلا الملامح المعلنة . الجنس روعة . الأمومة روعة مـروعة . الطفـولة روعـة وجود قـادم يتناهى إلى الذى لن يسـتطيـع إلا أن يكون حلمـاً . النسـاء مـوهبـة ليـس للرجـال بـل للأنوثـة ، ذلـك مـالم يكتشفه رجل .

فى الملامح التى لم تكتمل منه كـانت مقبرته ، وأسـئلة لم تصل إلى حد علامـة الاستفـهام . كـانت عظام وجهه تـؤلمه أحياناً فـيتوهـم الألم آتياً من تركيب العظام غير المتناسق . لكن الذى لم يدركه أن الذى يؤلم هو الخبئ .

كان يحـاول الخروج من أسر عظام وجـهه ليتنـفس طلق الوجود ، وحين لا يستطيع فإنه يدير معركـته تحت قناع العظام الصلبة وحين يختنق تدركه هى بتلك النظرة لإمرأة حين تثقب رجلاً .

لكنها اختـفت ذات يوم . بحث عنهـا طويلاً لم يهتد إليـها ، وملامـحه صارت بيضاء ، لا لون ، لا تجاعيد ، لا شئ .

انتابته الدهشة نظر إلى قرص الشمس ، سـألهاإن كانت تخبئ ملامحه . لكن الشمس ظلت شمساً . حارقة وصامتة . جن جنونه وراح ينهش وجهه أن ينطلق بالملامح . صار وجـهه خيـوط دم . يدفق ساخناً أسعده أن عـروقه مازالت تبوح بالدم الساخن . لعق حلمه أواخر الخيوط التى تصير قطرات ، وراح يسـتمـتع بالملامح الحـمـراء . تجلى له وجه الطـفل القديم فى قـرص الشمس وأسـقط دمعتين . أظلمت الدنيـا فتـجلت له كـهمـزة طلوق برائع حلم يهفـو على شـواشى النخيل بريح لا يعرف السكون . وحـيدة فى رائع شفيـف التجلى بالظلمة ضوء تهبط إليه وتمسـح الدمع.

بينهـما كـانت لحظات صفـاء وبوح يتـصافـيان من وجع ظلمـتيـهمـا . ويحكي لها عن أوجاع عظام وجهه الذى صار وحيداً ، فتحس خبط الطفل المقبور تحت عظامـه فى رحمها . تبوح له بخـوف ظلمة الرحم من ضوء لن يتبـدى . فيئن الطفل الذى تحت ملامـحه . كصـلاة صامتة ظل بينهـما بوح صامت أو صامت بوح .

إلى قصـر مهجـور رحلا . كانت الريح تصـفر فى البناء الذى له قـباب عاليـة ومآذن رمحية. صـارت الريح هى الصديق الوحيـد الذى يأتنسان به.

كانت الريح تحمل لهما رائحة الماضى البعيد ، ماض مقبور تحت العظام والملامح . صارا يلعبان الألعاب التى للأطفال ويحلمان بالأحلام التى هفت أن تتحرر . انعدمت أوزانهما فى القصر الذى كان مهجوراً . صارا يسبحان ويهيمان عشقاً ، تهويم إمرأة اكتملت ، ورجل صار .

فى صدر القاعة الرئيسية للقصر كان ملاكان يحاول كل منهما الإمساك بالآخر والريح تدفع جسديهما لكنهما غائبين فى قبلة ذات رائحة عذبة لم تكن عطرة . كانت عطنة بسحر الماضى . لكن بها لذة سحيقة لن يدركها فى الوجود أحد .

إختبأ كلُ منهما فى بطن ملاك . راحا يتهامسان . ويضحكان ، ويتذكران انهما كانا ذات يوم فى روعة تلك الملائكة سبح ، الملاكان فى تجويف القبة . الملاكان اللذان فقدا الأجنحة نبتت لهما أجنحة . كانت الأجنحة من لحم حى وريش هفيف وكان جسداهما من مرمر أبيض ذو عروق سوداء .

قيل فيما بعد أن القصر مسكون بالأرواح . وقيل للعواقر أن روح طفل تهوم فى القصر تبحث عن رحم تسكن فيه فيولد الطفل رجلاً . وراجت أساطير كثيرة لكن أحداً لم يلمح الملاكين اللذين لهما جسد من مرمر وأجنحة ترفرف حية .

يوسف فاخورى

١٩٩٧/٩/١٩

متيــت الموتــى

قال له الحفـار العجوز ، وكانت أسنانه قـد انقرضت بفعل فئـران المقابر فصارت أكذوبة قبر ومأوى لأساطير هجرة ديب الأرض .

قال له الحفار العجوز :

أنا أسعد أهل الأرض ، أنا لا أخشى الموت هو الذى يخشانى .

قـــال :

الموت رحمة ، ولكنه من فرط غيرته منى لم يرتض أن يرحمنى .

قال الحفار العجوز :

لم أسـتطع إحـصـاء عمـرى ، عـاصـرت الفـراعنة والبطالمة والرومـان والعـرب ، ثم لم أعد أسـتطيع أن أحصى ، فـتوارد عليّ من لم أسـتطع أن أميزهم . أرى الموت كل يوم ولم أستطعه ، تعبت أن أظل حياً .

قـــال :

نحن أهل موت ، بالحـياة نموت وبالموت نحيـا . إذا الحياة أقـبلت نخاف روعتـها ، إذا الموت جاء احتـفلنا . كنت أراه حين ندفن أحد مـوتانا شاباً ذا شوارب وهيكل هرقلـى يتفصـد بالعضلات . وله حـديقة من غزير الشـعر ينمو فى صدره ، لكن حين نطلع الرحمة كنت أراه عجوزاً كمومياء يجلـس فى ركن صامتاً .

ذات يوم فى شروق ، كان يدفن طفـلاً مات فى الغروب .. قال لابد من آخر المطاف أن يأتى . هذا الذى أدفن تخلى عنها من البداية ، وأنا منذ كانوا

يحنطون أتوق للنهاية ولا تأتى ، خانتنى الحياة بمرأى الموت ، خانتنى الموت باستمرار الحياة . الزمن لا ينتهى .

فى الليل فتح الفسقية وإلى جوار الطفل نام لكنه لم يمت ، فى الشروق سمع آذان الفجر ، وسمع آذان العصر وكان مايزال حياً . نفض الأتربة وخرج .

فى اليوم التالى اجتمع بالموتى . قالوا له أنت ميت مثلنا لكنك مازلت تلبس جسداً . تحسس جسده . قالوا له لا تقلق كثيراً من جسدك لأن روحك معنا ، لم يطمئن لكلامهم . فمازال به شوق للطعام ومازال يرغب الأنثى ، ومازال يخاف الزمن . أحس أن الموتى يخدعونه فمازال الحى الوحيد القادر على مؤانستهم .

فى اليوم التالى وجد الحل .

وحشى وقاس لكنه لم يأبه . فتح المقابر عبأ كأساً من متيت الموتى ، وعلى صخرة مرتفعة فى طرف الجبّانة وضع كرسياً بجوار الصخرة . غرس شجرة سقاها نصف الكأس ، وراح يرتشف النصف الآخر ويرقب المقابر .

قال له الحفار العجوز :

إنه لم يستطع أن يعرف كم من الزمن مضى وهو يسقى شجرته التى راحت تورق بمتيت الموتى . وانه حين كان يرتشف النصف الآخر يشعر بغيبوبة ولا يلبث أن يحس بوجوده مع شروق الفجر وحين يوسد أحداً القبر فإنه يحس أنه يفعل ذلك من العالم السفلى ، لكنه كان يروى لى بألق لم يستطعه من قبل ، وكانت شجرته تزهر بزهور لم توضع لميت من قبل .

رغم هـذا لم يمت ، لكن شيئاً كان يدب بخطـو وإيقاع ، ولـم أدرك ما هو ، وحين كنت أزوره كـان يجلس بجوار شجرته . لم أتبين من منهما كـان يحكي . لكنه كان موجوداً ، وشـجرته كـانت موجـودة . ولم أشعـر بالموت ولم أخشْ الحياة .

يوسف فاخوري

٣١/٨/١٩٩٧

الفهـــرس

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

إينارو	د. على فهمى خشيم
تحولات الجحش الذهبى	لوكيوس أبوولوس ترجمة د على فهمى خشيم
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
الخروج إلى النبع	محمد قطب
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
ترانزيت	ليلى الشربينى
مشوار	ليلى الشربينى
الرجل	ليلى الشربينى
رجال عرفتهم	ليلى الشربينى

قصص قصيرة ..

مطرية الغروب	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
حرب بلاد نمنم	خيرى عبدالجواد
حكايات الديب رماح	خيرى عبدالجواد
حرب أطاليا	خيرى عبدالجواد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد
شجرة الخلد	سعد القرس
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
فرد حمام	يوسف فاخورى
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوه
الفوز للزمالك والنصر للأهلى	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازى
الشاعر والحرامى	عزت الحريرى
رشفات من قهوتى الساخنة	محمد محى الدين

شعر ..

سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
قصائد حب من العراق	البيــاتى وآخرون
أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
دنيـــــا تناديـنـا	طارق الزياد
صلاة المودع	صبرى السيد
من فصول الزمن الردىء	درويش الأسيوطى
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدى رياض

عطر النغم الأخضر — عمر غراب

العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر — نادر ناشد

هذه الروح لى — نادر ناشد

فى مقام العشق — نادر ناشد

ندى على الأصابع — نادر ناشد

إذهب قبل أن أبكى — د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة — د.أحمدصدقى الدجانى

اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية) — محمد القارس

مملكة القرود — محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية — د . على فهمى خشيم

رحلة الكلمات — د . على فهمى خشيم

بحثاً عن فرعون العربى — د . على فهمى خشيم

أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم

مصر الفرعوبية — سليمان الحكيم

هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

تحديات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه

حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

الجات والتبعية الثقافية — د. مصطفى عبد الغنى

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم

فى الوجهة الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب

زمن النهاية : صوت اللحظة الصاخبة — مجدى إبراهيم

البعد الغائب : نظرات فى القصة والنهاية — سمير عبد الفتاح

أعلام من الأدب العالمى — على عبد الفتاح

المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين — خليل إبراهيم حسونة

أدب الشباب في ليبيا — خليل إبراهيم حسونة

العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى — خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور — د . أحمد الصاوى

رمضان .. زمان — د . أحمد الصاوى

القصص الشعبى فى مصر — إعداد خيرى عبد الجواد

إغاثة الأمة فى كشف الغمة

الفاشوش فى حكم قراقوش

الحكمة المعنية لابن المقفع

فنون ..

ماهى السينما — صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر — د . عفت عبد العزيز

الصوت والضوضاء — د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية – قومية – دينية – معارف عامة – أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب – وثائق – النشرة الدولية – دراسات عربية – معلومات – ملفات صحفية موثقة.



٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

فرد حمام

سرب الحمام راح يراوغ قرص الشمس ويكسر الظلال ، حام وهام بالأفق وحط فى فناء الدار ، وهى كانت تنتظر ضجيج انطباق الأجنحة، وانحسار الريح الخفيف أمام لحظة الانطباق ، وبقامتها أمام ريح ليست مرئية تنتصب ، وفيما بين غير المرئى وريح الأجنحة همس نظرة تتطلع ، ورقاب سرب الحمام تتراقص أمام النفس الانسانى لوجودها ، وهى المشدودة للأرض كالوتد تكاد تصعد بأنفاسها إلى أفق كانوا يملكونه ، وفيما بينهم كان حلماً يحلق فى اللامتناهى ويندلح فى غيمة .

◆

